القواعد الحسان لتفسير القرآن

تأليف

العلامة المحقق الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

من أفاضل علماء عنيزة

جعله الله هاديا مهديا وهداه إلى الحق صراطاً سويا

بتصحيح

محمد حامد الفقي

مطبعة أنصار السنة المحمدية

طبع على نفقة المؤلف

حقوق الطبع محفوظة له

١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلامضل له . ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً

أما بعد :

فهذه أصول وقواعد فى تفسير القرآن الكريم ، جليلة المقدار ، عظيمة النفع ، تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله ، والاهتداء به ، ومخبرها أجل من وصفها . فانها تفتح للعبد من طرق التفسير ، ومنهاج الفهم عن الله : ما يغنى عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة . أرجو الله وأسأله أن يتم ماقصدنا الى إيراده ، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سببا للوصول إلى العلم النافع ، والهدى الكامل .

فاعلم أن علم التفسير أجل العلوم على الاطلاق ، وأفضلها وأوجبها ، وأحبها إلى الله . لأن الله أمر بتدبر كتابه ، والتفكر

فى معانيه ، والاهتداء بآياته . وأثنى على القائمين بذلك ، وجعلهم فى أعلى المراتب، ووعدهم أسنى المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره فى هذا الفن ، لم يكن ذلك كثيراً فى جنب ماهو أفضل المطالب . وأعظم المقاصد ، وأصل الأصول كلها ، وقاعدة أساس السعادة فى الدارين ، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة و به يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدى والخير والرحمة ، و يهىء الله له أطيب الحياة والباقيات الصالحات .

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الايجاز الذى يحصل به المقصود . لأنه إذا انفتح للعبد الباب وتمهدت بفهم القاعدة الاسباب ، وتدرب منها بعدة أمثلة ، توضحها وتبين طريقها ومنهجها . لم يحتج إلى زيادة البسط . وكثرة التفاصيل ، ونسأله تعالى أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه . وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه واحسانه .

القاعدة الاولى

فى كيفية تلقى التفسير

كل من سلك طريقا وعمل عملا . وأتاه من أبوابه ، وطرقه الموصلة إليه ، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته ، كما قال تعالى (٢ : ١٨٩ وائتوا البيوت من أبوابها) وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر ، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه . ولا ريب أن مانحن فيه هو أهم الأمور وأجلها ، بل هو أساسها وأصلها

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق ، وإرشادهم وأنه فى كل وقت وزمان ومكان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها (١٧:٩ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) فعلى الناس أن يتلقوا معنى كلام الله كما تلقاه الصحابة رضى الله عنهم ، فانهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات ، أو أقل أو أكثر ، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا مادلت عليه من الايمان والعلم والعمل ، فينزلونها على الأحوال الواقعة يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار ، وينقادون لأوامرها ونواهيها ، ويطبقونها على جميع مايشهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم ، ويحاسبون أنفسهم:

هل هم قائمون بها ، أو مخلون بحقوقها ومطلوبها ؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة ، وتدارك ما نقص منها ؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة ؟ فيهتدون بعلومه ، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه ، ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة ، موجه إليهم ، مطالبون بمعرفة معانيه ، والعمل بما يقتضيه .

فمن سلك هذا الطريق ، وجدّ واجتهد فى تدبر كلام الله ، انفتح له البـاب الأعظم فى علم التفسير ، وقويت معرفته واستنارت بصيرته ، واستغنى بهذا الطريق عن كثرة التكلفات ، وعن البحوث الخارجية . وخصوصا إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانبا قويا . وكان له إلمـام واهتمام بسيرة النبى ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه . فان ذلك أكبر عون على هذا المطلب

ومتى علم العبد أن القرآن فيه بيان كل شىء ، وأنه كفيل بجميع المصالح ، مبين لها ، حاث عليها ، زاجر عن المضار كلها ، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه ، ونزلها على كل واقع وحادث ، سابق أولاحق . ظهر له عظم موقعها ، وكثرة فوائدها وثمرتها

و يلحق بهذه القاعد :

القاعدة الثانية

العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب

وهذه القاعدة نافعة جدا ، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير ، وباهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير ، ويقع فى الغلط والارتباك الخطير

وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم فمتى راعيت هذه القاعدة حق الرعاية ، وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول : إنما هو على سبيل المثال لتوضيح الألفاظ ، وليست معانى الألفاظ والآيات مقصورة عليها . فقولهم : نزلت فى كذا وكذا ، معناه : أن هذا مما يدخل فيها . ومن جملة مايراد بها . فان القرآن — كما تقدم — إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها ، حيث تكون وأنى تكون

والله تعالى قد أمرنا بالتفكر والتدبر لكتابه ، فاذا تدبرنا الألفاظ العامة ، وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة ، فلأى شيء نخرج بعض هذه المعانى ، مع دخول ماهو مثلها ونظيرها فيها؟ ولهذا قال ابن مسعود رضى الله عنه « إذا سمعت الله يقول : يا أيها الذين آمنوا ، فأرعها سمعك ، فانه إما خير تؤمر به ؛ وإما شر تنهى عنه » .

فمتى مر بك خبر عن صفات الله وأسمائه ، وعما يستحقه من الكمال ، وما يتنزه عنه من النقص . فأثبت له جميع ذلك المعنى الكامل الذى أثبته سبحانه لنفسه ، ونزهه عن كل ما تنزه نفسه عنه

وكذلك إذا مر بك خبر عن رسله وكتبه ، واليوم الآخر ، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة ، فاجزم جزما لاشك فيه أنه على حقيقته ، بل هو أعلا أنواع الحق والصدق (ومن أصدق من الله قيلا ؟) وحديثا

وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه وما يدخل فيه وما لا يدخل وعلمت أن ذلك الأمر موجه إلى جميع الأمة . وكذلك فى النهى .

ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصل كل الخير والفلاح ، والجهل بذلك أصل كل الشر والخسران

فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله والقيام بها . والقرآن قد جمع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها ، بأوضح الألفاظ ، وأحسنها قال تعالى (٢٥ : ٢٣ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا)

يوضح ذلك ويبينه ، وينهج طريقته :

القاعدة الثالثة

الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق ، بحسب مادخلت عليه . وقد نص على ذلك أهل الأصول ، وأهل العربية ، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والايمان. فمثل قوله تعالى (٣٣ : ٣٥ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ـ إلى قوله تعالى ـ أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما) يدخل فى هذه الأوصاف كل ما تناوله من معانى الاسلام والايمان والقنوت والصدق إلى آخرها. وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها مارتب عليها من المغفرة والأجر العظيم. و بنقصانها ينقص ، و بعدمها يفقد ، وهكذا كل وصف رتب عليه خير وأجر وثواب ، وكذلك مايقابل ذلك كل وصف نهى الله عنه ورتب عليه وعلى الاتصاف به عقوبة وشرا ونقصا، يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور ، وكذلك مثل قوله تعالى (٧٠ : ١٩ ـ ٣٥ إن الانسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا. و إذا مسه الخير منوعا) عام لجنس الانسان . فكل إنسان هذا وصفه الا من استثنى الله بقوله (إلا المصلين ـ إلى آخرها) كما أن قوله (والعصر إن الانسان لفى خسر) دال على ان كل

إنسان عاقبته ومآله الى الخسار (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وأمثال ذلك كثير

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة :فى الأسماء الحسنى ،فان فى القرآن منها شيئا كثيرا ، وهى أجل علوم القرآن بل هى المقصد الأول للقرآن

فمثلا يخبر الله عن نفسه : أنه الرب الحى القيوم ، وأنه الملك والعليم والحكيم ، والعزيز والرحيم،والقدوس السلام، والحميد المجيد فالله هو الذى له جميع معاني الربوبية التى يستحق أن يؤله لأجلها وهى صفات الكمال كلها ، والمحامد كلها له،والفضل كله ، والاحسان كله،وأنه لا يشارك الله أحد فى معنى من معانى الربوبية (٤٢:١١ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) لا بشر ولا ملك ، بل هم جميعا عبيد مربوبون لربهم بكل أنواع الربوبية . مقهورون خاضعون لجلاله وعظمته. فلا ينبغى أن يكون أحد منهم ندا، ولا شريكا لله فى عبادته و إلهيته . فبربوبيته سبحانه يربى الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم : خلقا ورزقا وتدبيرا و إحياء و إماتة. وهم يشكرونه على ذلك باخلاص العبادة كلها له وحده ، فيؤلهونه ولا يتخذون من دونه وليا ولا شفيعا . فالالهية حق له سبحانه على عباده بصفة ربوبيته،وأنه الملك الذى له جميع معانى الملك .

وهو الملك الكامل والتصرف النافذ . وأن الخلق كلهم مماليك لله ، عبيد تحت أحكام ملكه القدرية والشرعية ، والجزائية ، وأنه العليم بكل شيء ، الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، الذى أحاط علمه بالبواطن والظواهر والخفيات والجليات والواجبات والمستحيلات ، والجائزات . والأمور السابقة واللاحقة والعالم العلوى والسفلى والكليات والجزئيات . وما يعلم الخلق وما لا يعلمون (٢ : ٢٥٥ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم) وأنه الحكيم الذى له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه وقدره وخلقه ، وجميع ما شرعه لا يخرج عن حكمته ، لا مخلوق ولا مشروع . وأنه العزيز الذى له جميع معانى العزة على وجه الكمال التام من كل وجه ، عزة القوة وعزة الامتناع ، وعزة القهر والغلبة ، وأن جميع الخلق فى غاية الذل ونهاية الفقر ، ومنتهى الحاجة والضرورة إلى ربهم ، وأنه الرحمن الرحيم الذى له جميع معاني الرحمة الذى وسعت رحمته كل شيء ، ولم يخل مخلوق من إحسانه و بره طرفة عين . تبلغ رحمته حيث يبلغ علمه (٤٠ : ٧ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) وأنه القدوس السلام ، المعظم المنزه عن كل عيب

وآفة ونقص ، وعن مماثلة أحد ، وعن أن يكون له ند من خلقه

وهكذا بقية الأسماء الحسني، اعتبرها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك باب عظيم من أبواب معرفة الله . بل أصل معرفة الله تعالى معرفة ماتحتوى عليه اسماؤه الحسنى ، وتقتضيه من المعانى العظيمة،بحسب مايقدر عليه العبد ، و إلا فلن يبلغ علم أحد من الخلق . بذلك ولن يحصى أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق مايثنى عليه عباده .

ومن ذلك قوله تعالى (٥ : ٢ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) يشمل جميع أنواع البر والخير ، وتشمل التقوى جميع ماينبغى و يلزم اتقاؤه من أنواع المخوفات والمعاصى والمحرمات . والاثم : اسم جامع لكل ما يؤثم ، و يوقع فى المعصية ، كما أن العدوان اسم جامع يدخل فيه جميع أنواع التعدى على الناس فى الدماء والأموال والأعراض ، والتعدى على مجموع الأمة وعلى الحكومات والتعدى لحدود الله .

و «المعروف » فى القرآن : اسم جامع لكل ماعرف حسنه وجماله شرعا وعقلا ، وعكسه : المنكر والسوء والفاحشة .

وقد نبه النبى ﷺ أمته إلى هذه القاعدة ، وأرشدهم إلى اعتبارها ، إذ علمهم أن يقولوا فى التشهد فى الصلاة « السلام

علينا وعلى عباد الله الصالحين » فقال « فانكم إذا قلتم ذلك سلمتم على كل عبد لله صالح من أهل السماء والأرض »فى القرآن كثير جداً من هذا .

القاعدة الرابعة

إذا وقعت النكرة فى سياق النفى ، أو النهى، أو الشرط، أو الاستفهام : دلت على العموم . كقوله تعالى (٤ : ٣٦ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) فانه نهى عن الشرك به فى النيات ، والأقوال والأفعال ، وعن الشرك الأكبر ، والاصغر والخفى ، والجلى . فلا ينبغى أن يجعل العبد لله نداً ومشاركا فى شىء من ذلك .

ونظيرها قوله (٢ :٢٢ فلا تجعلوا لله نداداً وأنتم تعلمون)

وقوله فى وصف يوم القيامة (٨٢:١٩ يوم لاتملك نفس لنفس شيئا) يعم كل نفس ، وأنها لاتملك فى هذا اليوم شيئا من الاشياء ، لأى نفس أخرى، مهما كانت الصلة ، لا إيصال شىء من المنافع ، ولا دفع شىء من المضار . وكقوله تعالى (١٠ : ١٠٧ و إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، و إن يردك بخير فلاراد لفضله) فكل ضر قدره الله على العبد ليس فى استطاعة

أحد من الخلق كائنا من كان كشفه بوجه من الوجوه .

ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية : إنما هو جزء من أجزاء كثيرة داخلة فى قضاء الله وقدره .

وقوله : (٣٥ : ٢ مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) وقوله (١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله) يشمل كل خير فى العبد و يصيب العبد ، وكل نعمة فيها حصول محبوب ، أو دفع مكروه ، فان الله هو المنفرد بذلك وحده .

وقوله : (٣٥ : ٣ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو) و إذا دخلت « من » صارت نصا فى العموم ، كهذه الآية (٦٩ : ٤٧ فما منكم من أحد عنه حاجزين) وقوله فى غير آية (ومالكم من إله غيره) ولها أمثلة كثيرة جدا

القاعدة الخامسة

المقرر : أن المضاف يفيد العموم ، كما يفيد ذلك اسم الجمع

فكما أن قوله تعالى (٤ : ٢٣ حرمت عليكم أمهاتكم ـ إلى آخرها) يشمل كل أم انتسبت اليها ، و إن علت . وكل بنت انتسبت إليك وان نزلت ـ إلى آخر المذكورات . فكذلك قوله

تعالى (١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله) فانها تشمل النعم الدينية والدنيوية وقوله (٦ : ١٦٢ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) فانها تعم الصلوات كلها ، والأنساك كلها . وجميع ما العبد فيه وعليه فى حياته ومماته ، الجميع من الله فضلا و إحسانا ، وأنك قد أتيت ما أتيت منه واوقعته وأخلصته لله وحده . لاشريك له

وقوله (٢:١٢٥ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) على أحد القولين :أنه يشمل جميع مقاماته فى مشاعر الحج : اتخذوه معبدا

وأصرح من هذا قوله (١٦ : ١٢٣ ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) وهذا شامل لكل ما كان عليه إبراهيم من التوحيد والاخلاص لله تعالى ، والقيام بحق العبودية

وأعم من ذلك وأشمل: قوله تعالى لما ذكر الأنبياء (٦:٩٠ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فأمره الله أن يقتدى بجميع ما عليه المرسلون من الهدى ، الذى هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية ، والأعمال الصالحة ، والهدى المستقيم . وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف : أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ، وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم

فى أصول الدين وفروعه . وكذلك قوله تعالى (٦ : ١٥٣ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) وهذا يعم جميع ما شرعه لعباده ، فعلا وتركا ، اعتقادا وانقيادا ، وأضافه الى نفسه فى هذه الآية لكونه هو الذى نصبه لعباده . كما أضافه الى الذين أنعم عليهم فى قوله (صراط الذين أنعمت عليهم) لكونهم هم السالكين له . فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذى كانوا دائمين عليه من العلوم والأخلاق والأوصاف والأعمال وكذلك قوله (١٨ : ١١٠ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) يدخل فى ذلك جميع العبادات الظاهرة والباطنة ، العبادات الاعتقادية والعملية ، كما أن وصف الله لرسوله ﷺ بالعبودية المضافة إلى الله كقوله (سبحان الذى أسرى بعبده) (و إن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده) تدل على أنه وفى جميع مقامات العبودية ، حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبودية . وقوله (٣٩ : ٣٦ أليس الله بكاف عبده؟) فكلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله له أكمل وأتم ، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه

وقوله (٥٤ : ٥٠ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) وقوله (١٦ : ٤٠ إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) يشمل جميع أوامره القدرية الكونية . وهذا فى القرآن شىء كثير

القاعدة السادسة

فى طريقة القرآن فى تقرير التوحيد ونفى ضده

القرآن كله لتقرير التوحيد ونفى ضده . وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الالهية و إخلاص العبادة لله وحده لاشريك له ويخبر أن جميع الرسل إنما أرسلت تدعو قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأن الله تعالى إنما خلق الجن والانس ليعبدوه ، وأن الكتب والرسل ، بل الفطر والعقول السليمة كلها اتفقت على هذا الاصل، الذى هو أصل الأصول كلها ، وأن من لم يدن بهذا الدين الذى هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده . فعمله باطل (٣٩ : ٦٥ لئن أشركت ليحبطن عملك) (٦ : ٨٨ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) ويدعو العباد إلى ماتقرر فى فطرهم وعقولهم من أن الله المنفرد بالخلق والتدبير والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة :هو الذى يستحق العبادة وحده . ولا ينبغى أن يكون شىء منها لغيره . وأن سائر الخلق ليس عندهم أى قدرة على خلق، ولا نفع ولا دفع ضر عن أنفسهم فضلا عن أن يغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئاً .

ويدعوهم أيضاً إلى هذا الأصل بما يتمدح به ،ويثنى على نفسه

الكريمة ، من تفرده بصفات العظمة والمجد ، والجلال والكمال وأن من له هذا الكمال المطلق الذى لا يشاركه فيه مشارك : أحق من أخلصت له والقلوب والأعمال الظاهرة والباطنة

ويقرر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده . فلا يحكم غيره شرعا ولا جزاء (١٢ : ٤٠ إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه)

وتارة يقرر هذا بذكر محاسن التوحيد ، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعا وعقلا وفطرة ، على جميع العبيد . ويذكر مساوئ الشرك وقبحه ، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم ، وتقليب أفئدتهم ، وكونهم أضل من الأنعام سبيلا

وتارة يدعو إليه بذكر مارتب عليه من الجزاء الحسن فى الدنيا والآخرة والحياة الطيبة فى الدور الثلاث ، وما رتب على ضده من العقوبات العاجلة والآجلة ، وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وشرها .

وبالجملة : فكل خير عاجل وآجل ، فانه من ثمرات التوحيد ، وكل شر عاجل وآجل ، فانه من ثمرات الشرك والله أعلم

القاعدة السابعة

فى طريقة القرآن فى تقرير نبوة محمد ﷺ

هذا الأصل الكبير: قرره الله فى كتابه بالطرق المتنوعة التى يعرف بها كمال صدقه ﷺ فاخبر أنه صدق المرسلين، ودعا إلى مادعوا إليه، وأن جميع المحاسن التى فى الأنبياء فى نبينا محمد ﷺ وما نزهوا عنه من النقائص والعيوب، فرسولنا محمد أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه. وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مهيمن على كل الكتب. فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله فى هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف. لم توجد فى غيره. وقرر نبوته بأنه أمى لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحداً من أهل العلم بالكتب السابقة، بل لم يفجأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب الذى لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله ما أتوا ولا قدروا، ولا هو فى استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو أن يكون قد تقوّله على ربه أو أن يكون على الغيب ظنينا.

وأعاد فى القرآن وأبدى فى هذا النوع وقرر ذلك بأنه يخبر

بقصص الأنبياء السابقين مطولة على الوجه الواقع ، الذى لا يستريب فيه أحد ثم يخبر تعالى : أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحى ، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطولة (٢٨ : ٤٦ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) ولما ذكر قصة يوسف و إخوته مطولة قال (١٣ : ١٠٢ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) .

فهذه الأمور والاخبارات المفصلة التى يفصلها الرسول بما أوحى إليه تفصيلا ، صحح به أكثر الأخبار والحوادث التى كانت فى كتب أهل الكتاب محرفة ومشوهة بما أضافوا إليها من خرافات وأساطير ، حتى مايتعلق منها بعيسى وأمه وولادتهما ونشأتهما ، وبموسى وولادته ونشأته ، كل ذلك وغيره لم يكن يعرفه أهل الكتاب على حقيقته حتى جاء القرآن. فقص ذلك على ماوقع وحصل . مما أدهش أهل الكتاب وغيرهم ، وأخرس ألسنتهم حتى لم يقدر أحد منهم ممن كان فى وقته ، ولا ممن كانوا بعد ذلك ـ أن يكذبوا بشىء منها ، فكان ذلك من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً .

وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله ، وتمام قدرته . وأن تأييده لرسوله ونصره على أعدائه ، وتمكينه فى الأرض هو مقتضى حكمة

ورحمة العزيز الحكيم وأن من قدح فى رسالته فقد قدح فى حكمة الله ، وفى قدرته . وفى رحمته ، بل وفى ربوبيته

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبى على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته ، وأدلة توحيده . كما هو ظاهر للمتأملين .

وتارة يقرر نبوته ورسالته بما جمع له وكمله به من أوصاف الكمال ، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة ، وأن كل خلق عال سام فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلاه وأكمله .

فمن عظمت صفاته ، وفاقت نعوته جميع الخلق ، التى أعلاها: الصدق والأمانة ، أليس هذا أكبر الأدلة على أنه رسول رب العالمين ، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين ؟

وتارة يقررها بما هو موجود فى كتب الأولين ، وبشارات الأنبياء والمرسلين السابقين ، إما باسمه اللقب أو بأوصافه الجليلة ، وأوصاف أمته وأوصاف بيئته . كما فى قوله تعالى (٦١:٦ ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد)

وتارة يقرر رسالته بما أخبره به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة ، التى وقعت فى زمان ، مضى على زمانه أو وقعت فى

فى زمانه والتى لاتزال تقع فى كل وقت فلولا الوحى ماوصل إليه شىء من هذا ، ولا كان له ولا لغيره طريق إلى العلم به .

وتارة يقررها بحفظه إياه وعصمته له من الخلق ، مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه ، وجدهم التام فى الايقاع به بكل ما فى وسعهم . والله يعصمه و يمنعه منهم و ينصره عليهم . وما ذاك إلا لأنه رسوله حقا ، وأمينه على وحيه والمبلغ ما أمر به .

وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ماجاء به ،وهو القرآن الذى (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) و يتحدى أعداءه ومن كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة فعجزوا ونكصوا و باءوا بالخيبة والفشل .وهم أهل اللسن المبرزون فى ميدان القول والفصاحة، ومع ذلك ما استطاعوا ـ مع شدة حرصهم ومحاولتهم ـ أن يأتوا بسورة منه وما استطاعوا ولا قدروا ـ مع شدة حرصهم ومحاولتهم ـ أن يجدوا فيه نقصاً أو عيباً ينزل به عن أعلى درجات الفصاحة التى ملكت أزمة قلوبهم فلجأوا إلى السيف و إراقة دمائهم ،وما كانوا يعمدون إلى هذا لولا أنهم لم يجدوا سبيلا إلى محاربته بالقول، وما كانوا يزعمونه عندهم علوما وحكما فكان عدولهم إلى السيف و إراقة الدماء أكبر الأدلة على صدق الرسول، وأنه لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى ، وأقطع

البراهين على أنه الحق والهدى من عند الله الذى جمع الله فيه لرسوله وللمؤمنين به كل مايكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة فى كل شئونهم . وأن هذا القرآن لأكبر أدلة رسالته وأجلها وأعمها .

والله تعالى يقرر أن القرآن كاف جدا أن يكون هو الدليل الوحيد على صدق رسوله ﷺ فى مواضع عدة . منها قوله (٢٩: ٥١ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)

وتارة يقرر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات ، وما أجرى له من الخوارق والكرامات ، الدال كل واحد منها بمفرده ـ فكيف إذا اجتمعت ـ على أنه رسول الله الصادق المصدوق ، الذى لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

وتارة يقررها بعظيم شفقته ﷺ على الخلق ، وحنوه الكامل على أمته ، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم . وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا براً و إحساناً إلى الخلق منه . وآثار ذلك ظاهرة للناظرين .

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها فى كتابه وقررها بعبارات متنوعة ، ومعانى مفصلة وأساليب عجيبة . وأمثلتها تفوق العد والاحصاء . والله أعلم .

القاعدة الثامنة

طريقة القرآن فى تقرير المعاد

وهذا الأصل الثالث من الأصول التى اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها وهى : التوحيد ، والرسالة ، وأمر المعاد ، وحشر العباد .

وهذا قد أكثر الله من ذكره فى كتابه الكريم . وقرره بطرق متنوعة .

منها : إخباره وهو أصدق القائلين عنه وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى ، مع إكثار الله من ذكره . فقد أقسم عليه فى ثلاثة مواضع من كتابه : كقوله (لا أقسم بيوم القيامة)

ومنها الاخبار بكمال قدرة الله تعالى ، ونفوذ مشيئته ، وأنه لا يعجزه شىء . فاعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته .

ومنها تذكيره للعباد بالنشأة الأولى ، وأن الذى أوجدهم ولم يكونوا شيئا مذكوراً ، لابد أن يعيدهم كما بدأهم . وأن الاعادة أهون عليه. وأعاد هذا المعنى فى مواضع كثيرة بأساليب متنوعة

ومنها : إحياؤه الأرض الهامدة الميتة ، بعد موتها . وأن الذى أحياها سيحيي الموتى ، وقرر ذلك بقدرته على ماهو أكبر من ذلك . وهو خلق السموات والأرض ، والمخلوقات العظيمة . فمتى

أثبت المفكرون ذلك ، ولن يقدروا على إنكاره . فلأى شىء يستبعدون إحياء الموتى ؟ وقرر ذلك بسعة علمه ، وكمال حكمته ، وأنه لايليق به ، ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين ، لايؤمرون ولا ينهون ، ولا يثابون ولا يعاقبون . وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد .

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين باحسانهم ، والمسيئين باسائتهم : ما أخبر به من أيامه وسننه سبحانه فى الأمم الماضية والقرون الغابرة . وكيف نجى الأنبياء وأتباعهم ، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث ؟ ونوع عليهم العقوبات ؟ وأحل بهم المثلات ، فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيّ عن بينة

ومن ذلك : ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات فى الدنيا كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بنى اسرائيل . والذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، وقصة ابراهيم الخليل والطيور ، و إحياء عيسى ابن مريم للأموات وغيرها مما أراه الله عباده فى هذه الدار ، ليعلموا أنه قوى ذو اقتدار ، وأن العباد لابد أن يردوا دار القرار . إما الجنة أو النار .

وهذه المعانى أبداها الله وأعادها فى محال كثيرة. والله أعلم.

القاعدة التاسعة

فى طريقة القرآن فى أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية

قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتى هى أحسن ، أى بأقرب طريق ، موصل للمقصود محصل للمطلوب . ولا شك أن الطرق التى سلكها الله فى خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية ، هى أحسنها وأقربها .

فأكثر مايدعوهم إلى الخير ، وينهاهم عن الشر بالوصف الذى من عليهم به . وهو الايمان . فيقول : يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا ، اتركوا كذا . لأن فى ذلك دعوة لهم من وجهين .

أحدهما : من جهة الحث على القيام بلوازم الايمان ، وشروطه ومكملاته ، فكأنه يقول : يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر ، و إجتناب النواهى ، والتخلق بكل خلق حميد والتجنب لكل خلق رذيل .

فان الايمان الحقيقى هكذا يقتضى ، ولهذا أجمع السلف أن الايمان يزيد وينقص ، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الايمان ولوازمه ، كما دلت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة ، من الكتاب والسنة ـ وهذا أحدها ، حيث يصدر الله أمر المؤمنين

بقوله : (يا أيها الذين آمنوا) أو يعلق فعل ذلك على الايمان وأنه لايتم الايمان إلا بذلك المذكور .

والوجه الثانى : أن يدعوهم بقوله : (يا أيها الذين آمنوا) افعلوا كذا ، أو اتركوا كذا ، أو يعلق ذلك بالايمان ، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة ، التى هى أجل المنن ، أى : يامن من الله عليهم بالايمان ، قوموا بشكر هذه النعمة ، بفعل كذا ، وترك كذا .

فالوجه الأول : دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم ، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطنة .

والوجه الثانى : دعوة لهم إلى شكر نعمة الايمان ، ببيان تفصيل هذا الشكر . وهو الانقياد التام لأمره ونهيه . وتارة يدعو المؤمنين إلى الخير ، وينهاهم عن الشر ، بذكر آثار الخير ، وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة ، و بذكر آثار الشر ، وعواقبه الوخيمة فى الدنيا والآخرة .

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة ، وآلائه الجزيلة ، وأن النعم تقتضى منهم القيام بشكرها . وشكرها هو القيام بحقوق الايمان .

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب ، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب ، وما للعصاة من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ماله من الأسماء الحسنى : وما له من الحق العظيم على عباده ، وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً ويتعبدوا له وحده ، ويدعوه بأسمائه الحسنى . وصفاته المقدسة

فالعبادات كلها شكرلله وتعظيم وتكبير وإجلال وإكرام ، وتودد إليه ، وتقرب منه .

وتارة يدعوهم إلى ذلك ، لأجل أن يتخذوه وحده وليا وملجأ ، وملاذا ومعاذا، ومفزعا إليه فى الأمور كلها وينيبوا إليه فى كل حال ، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه ، وأنه إن لم يدخل فى ولاية الله وتوليته الخاصة تولاه عدوه الذى يريد له الشر والشقاء ، ويمنيه ويغره . حتى يفوته المنافع والمصالح ويوقعه فى المهالك

وهذا كله مبسوط فى القرآن بعبارات متنوعة

وتارة يحثهم على ذلك ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والاعراض ، والأديان المبدلة . امثلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام . كقوله (ولا تكن من الخاسرين) (فلا تكن من الظالمين) (فلا تكن من الغافلين) (ألم يأن للذين آمنوا

أن تخسع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) إلى غير ذلك من الآيات

القاعدة العاشرة

فى طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم

يدعوهم إلى الاسلام ، والايمان بمحمد ﷺ ، بما يضعه من محاسن شرعه ودينه ، وما يذكره من براهين رسالة محمد ﷺ ليهتدى من قصد الحق ، والانصاف ، وتقوم الحجة على المعاند

وهذه أعظم طريق يدعى بها جميع المخالفين لدين الاسلام

فان محاسن دين الاسلام ومحاسن النبى ﷺ وآياته وبراهينه فيها كفايه تامة للدعوة ، بقطع النظر عن إبطال شبهتهم ، وما يحتجون به. فان الحق إذا اتضح علم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال

و يدعوهم بما يخوفهم من أحداث الأمم وعقوبات الدنيا والآخرة ، و بما فى الأديان الباطلة من أنواع الشرور ، والعواقب الخبيثة وأنها إنما تقوم على الغفلة والتكذيب لآيات الله الكونية والعلمية بالوقوع تحت سلطان الجهل والتقليد الأعمى للآباء والشيوخ والسادة و يحذرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء فانهم رؤساء الشر ، ودعاة النار وأنهم لا بد أن تقتطع نفوسهم على ما عملوه وقدموه حسرات ، وأنهم

يتمنون أن لو أطاعوا الرسول . ولم يطيعوا السادة والرؤساء ، وأن مودتهم وصداقتهم وموالاتهم ستتبدل بغضاء وعداوة

ويدعوهم أيضا بنحو ما يدعو المؤمنين بذكر آلائه ونعمه وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذى يجب على العباد طاعته ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه

ويدعوهم أيضا بشرح ما فى أديانهم الباطلة ، وما احتوت عليه من القبح ، ويقارن بينها وبين دين الاسلام ، ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره ، وما يتعين اختياره ويدعوهم بالتى هى أحسن . فاذا وصلت بهم الحال إلى العناد والمكابرة الظاهرة توعدهم بالعقوبات الصوارم ، وبين للناس طريقتهم التى كانوا عليها ، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلا وضلالا أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف . وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد

ويبين مع ذلك الاسباب التى منعتهم من متابعة الهدى . وأنها رياسات وأغراض نفسية ، وأنهم لما آثروا الباطل على الحق طبع على قلوبهم ، وختم عليها ، وسد عليهم طرق الهدى : عقوبة لهم على إعراضهم وتوليهم الشيطان ، وإعراضهم عن الرحمن . وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم . وهذه المعانى الجزيلة مبسوطة فى القرآن فى مواضع كثيرة

فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحة جلية والله أعلم

القاعدة الحادية عشرة

كما أن المفسر للقرآن يراعى مادلت عليه ألفاظه ، مطابقة . ومادخل فى ضمنها. فعليه أن يراعى لوازم تلك المعانى ، وماتستدعيه من المعانى ، التى لم يعرج فى اللفظ على ذكرها

وهذه القاعدة: من أجل قواعد التفسير ، وأنفعها. وتستدعى قوة فكر ، وحسن تدبر وصحة قصد . فان الذى أنزله للهدى والرحمة هو العالم بكل شىء ، الذى أحاط علمه بما تكن الصدور ، و بما تضمنه القرآن من المعانى، وما يتبعها وما يتقدمها . وتتوقف هى عليه

ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم فى كلام الله لهذا السبب

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع : أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعانى . فاذا فهمتها فهما جيدا . ففكر فى الأمور التى تتوقف عليها . ولا تحصل بدونها . ومايشترط لها. وكذلك فكر فيما يترتب عليها . وما يتفرع عنها . و ينبنى عليها . وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه . حتى يصير لك ملكة جيدة فى الغوص على المعانى الدقيقة . فان القرآن حق . ولازم الحق حق . وما يتوقف على الحق حق . وما يتفرع عن الحق حق ذلك كله حق ولا بد

فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقا ونورا انفتحت له فى القرآن العلوم النافعة ، والمعارف الجلية والأخلاق السامية والآداب الكريمة العالية

ولنمثل لهذا الأصل أمثلة توضحه

منها : فى أسماء الله الحسنى «الرحمن الرحيم» فانها تدل بلفظها على وصفه بالرحمن ، وسعة رحمته

فاذا فهمت أن الرحمة التى لا يشبهها رحمة : هى وصفه الثابت وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق ، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين : عرفت أن هذا الوصف يدل على كمال حياته ، وكمال قدرته و إحاطة علمه ، ونفوذ مشيئته ، وكمال حكمته . لتوقف الرحمة على ذلك كله . ثم استدللت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمة . ولهذا يعلل الله تعالى كثيرا من الأحكام الشرعية برحمته و إحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها

منها قوله تعالى (٤ : ٥٨ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) فاذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها : استدللت بذلك على وجوب حفظ الأمانات ، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدى فيها وأنك لا تنال رضا الله إلا بأدائها لأهلها

و إذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل استدللت

بذلك على كل حاكم بين الناس فى الأمور الكبار والصغار ، لا بد أن يكون عالما بما يحكم به : فان كان حاكما عاما . فلا بد أن يحصل من العلم مايؤهله لذلك . و إن كان حاكما ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين ، حيث أمر الله أن نبعث حكما من أهله وحكما من أهلها . فلا بد أن يكون عارفا بهذه الأمور التى يريد أن يحكم فيها و يعرف الطريق التى توصله إلى الصواب منها

وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم ، وأنه فرض عين فى كل أمر يحتاجه العبد . فان الله أمرنا بأوامر كثيرة . ونهانا عن أمور كثيرة .

ومن المعلوم : أن امتثال أمره واجتناب نهيه : يتوقف على معرفة المأمور به والمنهى عنه وعلمه . فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمر الذى لا يعرفه ، أو يتجنب الأمر الذى لا يعرفه ؟

وكذلك أمره لعباده : أن يأمروا بالمعروف و ينهوا عن المنكر ، يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر . ليأمروا بهذا ، وينهوا عن هذا . فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وما لا يحصل ترك المنهى عنه إلا به فهو واجب .

فالعلم بالايمان والعمل الصالح متقدم على القيام به . والعلم

بضد ذلك متقدم على تركه ، لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصدا وتقربا وتعبدا حتى يعرفه و يميزه عن غيره .

ومن ذلك : الأمر بالجهاد ، والحث عليه . من لازم ذلك الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به : من تعلم الرمي بكل ما يرمى به والركوب لكل ما يركب ، وعمل آلاته وصناعاته . مع أن ذلك كله داخل دخول مطابقة فى قوله تعالى (٨ : ٦٠ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فانها تتناول كل قوة عقلية و بدنية ، وسياسية وصناعية ومالية ونحوها .

ومن ذلك أن الله استشهد بأهل العلم على توحيده ، وقرن شهادتهم بشهادته ، وشهادة ملائكته . وهذا يدل على عدالتهم وأنهم حجة من الله تعالى على من كذب بمنزلة آياته وأدلته .

ومن ذلك : أن سؤال عباد الرحمن ربهم أن يجعلهم للمتقين إماما : يقتضى سؤالهم الله جميع ما تتم به الامامة فى الدين : من علوم ومعارف جليلة ، وأعمال صالحة وأخلاق فاضلة . لأن سؤال العبد لربه شيئا سؤال له ولما لا يتم إلا به . كما إذا سأل العبد الله الجنة ، واستعاذ به من النار . فانه يقتضى سؤاله كل ما يقرب إلى هذه و يبعد من هذه .

ومن ذلك : أن الله أمر بالصلاح والاصلاح . وأثنى على

المصلحين . وأخبر أنه لا يصلح عمل المفسدين . فيستدل بذلك على أن كل أمر فيه صلاح للعباد فى أمر دينهم ودنياهم . وكل أمر يعين على ذلك فانه داخل فى أمر الله وترغيبه ، وأن كل فساد وضرر وشر ، فانه داخل فى نهيه والتحذير عنه وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والاصلاح ، بحسب استطاعة العبد ، كما قال شعيب صلى الله عليه وسلم (١٢ : ٨٨ إن أريد الاصلاح ما استطعت)

ومن ذلك قوله تعالى (و بشر المؤمنين) و(٨ : ٦٥ حرض المؤمنين على القتال) يقتضى الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به والأمر بكل ما فيه حث وتحريض على القتال وما يتوقف على ذلك ، و يتبعه من الاستعداد ، والتمرن على أسباب الشجاعة والسعى فى القوة المعنوية من التآلف واجتماع الكلمة ، ونحو ذلك .

ومن ذلك : الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية ، والتذكير بها ، وتعليمها . فان كل أمر يحصل به التبليغ وايصال الأحكام إلى المكلفين يدخل فى ذلك ، حتى إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية ، ووجدت أسبابها ، وكانت تخفى عادة على أكثر الناس، كثبوت الصيام ، والفطرة ، والحج وغيره بالأهلة

ابلاغها بالأصوات والرمى ، وابلاغها بما هو أبلغ من ذلك ، كالبرقيات ونحوها . وكذلك يدخل فيه كل ما أعان على ايصال الأصوات إلى السامعين ، من الآلات الحادثة، فحدوثها لا يقتضى منعها . فكل أمر ينفع الناس فان القرآن لا يمنعه ، بل يدل عليه لمن أحسن الاستدلال والانتفاع به .

وهذا من آيات القرآن وأكبر براهينه أنه لا يمكن أن يحدث علم صحيح ينقض شيئا منه . فانه يرد بما تشهد به العقول جملة وتفصيلا . ويرد بمالا تهتدى اليه العقول

وأما وروده بما تحيله العقول الصحيحة وتمنعه . فهذا محال . والحس والتجربة شاهدان بذلك . فانه مهما توسعت الاختراعات وعظمت الصناعات ، وتبحرت المعارف الطبيعية ، وظهر للناس فى هذه الأوقات ماكانوا يجهلونه قبل ذلك . فان القرآن ولله الحمد لا يخبر باحالته ، بل نجد بعض الآيات فيها إجمال أو إشارات تدل عليه .

وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فى غير هذا الموضع . والله أعلم وأحكم وبالله التوفيق

القاعدة الثانية عشرة

الآيات القرآنية التى يفهم منها قصار النظر التعارض : يجب حمل كل نوع منها على مايليق و يناسب المقام كل بحسبه

وهذا فى مواضع متعددة من القرآن

منها : الاخبار فى بعض الآيات : ان الكفار لاينطقون ، ولا يتكلمون يوم القيامة . وفى بعضها : أنهم ينطقون و يحاجون و يعتذرون ، و يعترفون . فمحمل كلامهم ونطقهم : أنهم فى أول الأمر يتكلمون و يعتذرون ، وقد ينكرون ماهم عليه من الكفر و يقسمون على ذلك . ثم إذا ختم على ألسنتهم وأفواههم ، وشهدت عليهم جوارحهم بما كانوا يكسبون ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم أخرسوا فلم ينطقوا .

وكذلك الأخبار بأن الله تعالى لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة مع أنه أثبت الكلام لهم معه . فالنفى واقع على الكلام الذى يسرهم ، ويجعل لهم نوع اعتبار

وكذلك النظر والاثبات واقع على الكلام الواقع بين الله و بينهم ، على وجه التو بيخ لهم والتقريع . فالنفى يدل على أن الله ساخط عليهم ، غير راض عنهم . والاثبات يوضح احوالهم و يبين للعباد كمال عدل الله بهم . إذ هو يضع العقو بة موضعها .

ونظير ذلك : أن فى بعض الآيات أخبر أنه لايسأل عن ذنبه إنس ولاجان : وفى بعضها : انه يسألهم (ماذا كنتم تعبدون؟) و(ماذا أجبتم المرسلين ؟) و يسألهم عن أعمالهم كلها .

فالسؤال المنفى : هو سؤال الاستعلام . والاستفهام عن الامور المجهولة . فانه لاحاجة إلى سؤالهم ، مع كمال علم الله واطلاعه على ظاهرهم و باطنهم وجليل أمورهم ودقيقها .

والسؤال المثبت : واقع على تقريرهم بأعمالهم ، وتوبيخهم و إظهار أن الله حكم فيهم بعدله وحكمته .

ومن ذلك : الاخبار فى بعض الآيات أنه لا أنساب بين الناس يوم القيامة . وفى بعضها : أثبت لهم ذلك . فالمثبت هو الأمر الواقع والنسب الحاصل بين الناس كقوله (٩١:٣٥ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه ـ إلى آخرها) والمنفى: هو الانتفاع بها . فان الكفار يدعون أن أنسابهم تنفعهم يوم القيامة فأخبر تعالى أنه لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم

ونظير ذلك : الاخبار فى بعض الآيات : أن النسب نافع يوم القيامة ، كما فى إلحاق ذرية المؤمنين بآبائهم فى الدرجات . و إن لم يبلغوا منزلتهم . وأن الله يجمع لأهل الجنات والدرجات العالية مَنْ صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. فهذا لما اشتركوا

فى الايمان . وأصل الصلاح: زادهم من فضله وكرمه ، من غير أن ينقص من أجور السابقين لهم شيئا

ومن ذلك : الشفاعة فانه أثبتها فى عدة مواضع ، ونفاها فى مواضع من القرآن . وقيدها فى بعض المواضع : باذنه ولمن ارتضى من خلقه . فتعين حمل المطلق على المقيد . وأنها حيث نفيت فهى الشفاعة التى بغير إذنه ، ولغير من رضى الله قوله وعمله . وحيث أثبتت ، فهى الشفاعة التى باذنه لمن رضيه الله وأذن فيه

ومن ذلك : أن الله أخبر فى آيات كثيرة : أنه لا يهدى القوم الكافرين ، والفاسقين ، والظالمين ، ونحوها

وفى بعضها : أنه يهديهم و يوفقهم . فتعين حمل المنفيات على من حقت عليه كلمة الله . لقوله تعالى (١١ : ٩٦ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية) وحمل المثبتات على من لم تحق عليهم الكلمة

و إنما حقت كلمة الله بالعذاب والطرد على من ارتكسوا فى حمأة التقليد وغرقوا فى بحر الغفلة ، وأبوا أن يستجيبوا لداعى آيات الله الكونية والعلمية (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (والذين اهتدوا زادهم هدى) .

وهذا هو الحق الذى لا ريب فيه

ومن ذلك : الاخبار فى بعض الآيات : أنه العلى الأعلى .

وأنه فوق عباده وعلى عرشه. وفى بعضها: أنه مع العباد، أينما كانوا وأنه مع الصابرين والصادقين والمحسنين. ونحوهم، فعلوه تعالى أمر ثابت له، وهو من لوازم ذاته.

ودنوه، ومعيته لعباده. لأنه أقرب إلى كل أحد من حبل الوريد، فهو على عرشه علىٌّ على خلقه، ومع ذلك فهو معهم فى كل أحوالهم. ولا منافاة بين الأمرين، لأن الله تعالى ليس كمثله شىء فى جميع نعوته. وما يتوهم بخلاف ذلك فانه فى حق المخلوقين

وأما تخصيص المعية بالمحسنين ونحوهم، فهى معية أخص من المعية العامة، تتضمن محبتهم وتوفيقهم، وكلاءتهم، وإعانتهم فى كل أحوالهم، فحيث وقعت فى سياق المدح والثناء فهى من هذا النوع، وحيث وقعت فى سياق التحذير والترغيب والترهيب فهى من النوع الأول

ومن ذلك: النهى فى كثير من الآيات عن موالاة الكافرين وعن موادتهم والاتصال بهم، وفى بعضها الأمر بالاحسان إلى من له حق على الانسان منهم، ومصاحبته بالمعروف، كالوالدين والجار، ونحوهم

فهذه الآيات العامات من الطرفين، قد وضحها الله غاية التوضيح فى قوله (٦٠ : ٨، ٩ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين.

إنما ينهـاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ـ الآية)

فالنهى واقع على التولى . والمحبـة لأجل الدين ، والأمر بالاحسـان والبر ، واقع على الاحسان لأجل القرابة أو لأجل الجيرة أو الانسانية على وجه لايخل بدين الانسان

ومن ذلك : أنه أخبر فى بعض الآيات أن الله خلق الأرض ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات . وفى بعضها أنه لمـا أخبر عن خلق السموات . أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها

فهذه الآية تفسر المراد وأن خلق الأرض متقدم على خلق السموات . ثم لمـا خلق الله السموات بعد ذلك دحا الأرض . فأودع فيها جميع مصالحها المحتاج إليها سكانها

ومن ذلك : أنه تارة يخبر أنه بكل شىء عليم ، وتارة يخبر بتعلق علمه ببعض أعمال العباد . و ببعض أحوالهم ، وهذا الاخير فيه زيادة معني ، وهو يدل على المجازاة على ذلك العمل ، سواء كان خيراً أوشراً ، فيتضمن مع إحاطة علمه الترغيب والترهيب

ومن ذلك : الأمر بالجهاد فى آيات كثيرة ، وفى بعض الآيات الأمر بكف الأيدى ، والاخلاد إلى السكون ، فهذه حين كان

المسلمون ليس لهم قوة ، ولا قدرة على الجهاد باليد. والآيات الأخرى حين قووا وصار ذلك عين المصلحة ، والطريق إلى قمع الأعداء

ومن ذلك : أنه تارة يضيف الأشياء إلى أسبابها التي وقعت وتقع بها . وتارة يضيفها الى عموم قدره ، وأن جميع الأشياء واقعة بارادته ، ومشيئته . فيفيد مجموع الأمرين إثبات التوحيد ، وتفرد البارى بايقاع الأشياء بقدرته ومشيئته و إثبات الأسباب والمسببات والأمر بالمحبوب منها ، والنهى عن المكروه ، و إباحة مستوى الطرفين فيستفيد المؤمن الجد والاجتهاد فى الأخذ بالأسباب النافعة وتدقيق النظر وملاحظة فضل الله فى كل أحواله ، وأن لا يتكل على نفسه فى أمر من الأمور بل يتكل على الله و يستعين بربه .

وقد يخبر أن ما أصاب العبد من حسنة فمن الله ، وما أصاب من سيئة فمن نفسه ، ليعرف عباده أن الخير والحسنات والمحاب تقع بمحض فضله، وجوده ، و إن جرت ببعض الأسباب الواقعة من العباد . فانه هو الذى أنعم بالأسباب وهو الذى يسرها ، وأن السيئات وهى المصائب التى تصيب العبد ، فانما أسبابها من نفس العبد . و بتقصيره فى حقوق ربه ، وتعديه لحدوده . فالله و إن كان هو المقدر لها ، فانه قد أجراها على العبد بما كسبت يداه . ولهذا أمثلة يطول عدها

القاعدة الثالثة عشرة

طريقة القرآن فى الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر الله بالمجادلة بالتى هى أحسن . ومن تأمل الطرق التى نصب الله المحاجة بها مع المبطلين على أيدى رسله رآها من أوضح الحجج ، وأقواها ، وأقومها ، وأدلها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل ،على وجه لاتشويش فيه ، ولا إزعاج

فتأمل محاجة الرسل مع أممهم وكيف دعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، من جهة أنه المنفرد بالربوبية ، والمتوحد بالنعم . وهو الذى أعطاهم العافية ، والأسماع والأبصار ، والعقول والأرزاق ، وسائر أصناف النعم ، كما أنه المنفرد بدفع النقم . وأن أحدا من الخلق ليس يقدر على رفع ولا دفع ، ولا ضر ولا نفع ، فانه بمجرد معرفة العبد ذلك واعترافه به لا بد أن ينقاد للدين الحق ، الذى به تتم النعمة ، وهو الطريق الوحيد لشكرها .

وكثيرا مايحتج على المشركين فى شركهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بالزامهم باعترافهم بربوبيته ، وأنه الخالق لكل شىء ، والرازق لكل شىء . فيتعين أن يكون هوالمعبود وحده .

فانظر إلى هذا البرهان ، كيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة

إلى أنه لا تنبغى العبـادة إلا لمن هـذا شأنه . ذلك أن آثار ربوبيته تنادى بوجوب الاخلاص له .

ويجادل المبطلين أيضا بذكر عيب آلهتهم ، وأنها ناقصة من كل وجه ، لا تغنى عن نفسها فضلا عن عابديها شيئا .

ويقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يستغرب معه مخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ﷺ الذى جاء مصدقا لما سبقه من الرسالات التى مقصدها جميعها واحد ، وهو فك أغلال التقليد عن قلوب بنى آدم لينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بالتفكر فى آيات ربهم ، فيعرفوا بذلك أنه إلا له الحق ، وأن كل ما اتخذه الناس بوحى شياطين الانس والجن من آلهة ، فلا يخرج شىء منها عن أن يكون أثرا من آثار هذه الآيات ، وأنها لذلك لا تليق بأى وجه لمشاركة ربها وخالقها فى الآلهية ، ولا ينبغى أن تعطى إلا حقها فى المخلوقيـة والعبودية

وأن الخالق الذى ليس كمثله شىء هو المستحق لكل أنواع العبادة وأن لا يعبد إلا بما أحب وشرع .

وينقض على رؤساء المشركين ودعاة الباطل دعاويهم الباطلة وتزكيتهم لأنفسهم بالزور ، ببيان مايضاد ذلك من أحوالهم

وأوصافهم و يجادلهم بتوضيح الحق و بيان براهينه ، وأن صدق رسوله محمد ﷺ وحقيقة هذا تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له . فماذا بعد الصدق إلا الكذب ؟ و بعد الحق الضلال ؟

وهذا الأصل فى القرآن كثير . فانه يفيد فى الدعوة للحق ، ورد كل باخل ينافيه .

و يجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها ، وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه شيئا من حقوق الرب الخالق الغنى ، الكامل من جميع الوجوه .

و يتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدى وأحسن من هذا الكتاب ومن هذه الشريعة . وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين .

و يأمر نبيه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده فينكصون عنها ، لعلمهم أنه رسول الله الصادق . الذى لا ينطق عن الهوى وأنهم لو باهلوه لهلكوا .

وفى الجملة لا تجد طريقا نافعا فيه إحقاق الحق و إبطال الباطل إلا وقد رسمه القرآن على أكمل الوجوه .

القاعدة الرابعة عشرة

حذف المتعلق المعمول فيه : يفيد تعميم المعنى المناسب له

وهذه قاعدة مفيدة جدا ، متى اعتبرها الانسان فى الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة

وذلك أن الفعل وما هو معناه متى قيد بشيء تقيد به . فاذا أطلقه الله تعالى ، وحذف المتعلق كان القصد من ذلك التعميم . ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيرا من التصريح بالمتعلقات ، وأجمع للمعاني النافعة .

ولذلك أمثلة كثيرة جدا :

منها : أنه قال فى عدة آيات (لعلكم تعقلون) (لعلكم تذكرون) (لعلكم تتقون) فيدل ذلك على أن المراد : لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علمكموه ، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة . ولعلكم تذكرون ، فلا تنسون ولا تغفلون ، فتكونون دائما متيقظين مرهفى الحواس تحسون كل ما تمرون به من سنن الله وآياته ، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية . ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه

من الغفلة والجهل والتقليد ، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه من جميع الذنوب والمعاصى. و يدخل فى ذلك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام .

ولهذا كان قوله تعالى (٢ : ١٨٣ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون):

يفيد كل ما قيل فى حكمة الصيام، أى لعلكم تتقون المحارم عموما ، ولعلكم تتقون ما حرم الله على الصائمين من قول الزور والعمل به ؛ ومن كل الأحوال والصفات السيئة الخبيثة وتتقون وتتجنبون المفطرات والممنوعات ،ولعلكم تتصفون بصفة التقوى وتحصلون على كل ما يقيكم مما تكرهون ، وتتخلقون بأخلاقها . وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ مثل قوله (هدى للمتقين) أى المتقين لكل ما يتقى مما يقتل الانسانية الكريمة من الغفلة والجهل والتقليد والكفر والفسوق والعصيان ، المتقين الآخذين بكل أسباب القوة على شكر الله بأداء الفرائض والنوافل التى هى خصال التقوى .

وكذلك قوله (٧ : ٢٠١ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون) أى إن الذى كانت التقوى

وصفهم، واليقظة والتدبر لسنن الله وآياته حالهم، وترك المحارم شعارهم متى زين لهم الشيطان بعض الذنوب ولبس عليهم الطريق، وحاول تخديرهم بالشبهات أو الشهوات ـ تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلى المتاب اجلالا لعظمة الله وما يقتضيه وحرصا على نعم الله، والهدى والايمان وما توجبه التقوى. وتذكروا عقابه ونكاله، وتذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص وما تسلبه من الكمالات. فاذا هم مبصرون من أين أتوا، مبصرون الوجه الذى فيه التخلص من هذا الذنب الذى وقعوا فيه. فبادروا بالتوبه النصوح والرجوع إلى صراط الله المستقيم. فعادوا إلى مرتبتهم وعاد الشيطان خاسئا مدحورا.

وكذلك ما ذكره على وجه الاطلاق عن المؤمنين بلفظ « المؤمنين » و بلفظ (إن الذين آمنوا) ونحوها فان حقيقة معنى كلمة « إيمان » التصديق الحاصل عن علم وفهم وفقه لمن يكون منه هذا الايمان بأى شيء، يوجب له ولا بد إذعانا وانقيادا لما يدعو إليه هذا الايمان بذلك الشيء. ومن ذلك قول إخوة يوسف لأبيهم (وما أنت بمؤمن لنا) فاذا فهمت هذا علمت أن الايمان يقصد منه فى القرآن: الايمان بسنن الله وآياته فى الأنفس وفى

الآفاق ، والايمان بنعم الله وآلائه ، وأنها من العليم الحكيم . الذى ما خلق شيئا لعبا ولا باطلا ، ولا أنزل ولا شرع شيئا لعبا ولا باطلا ، وأن كل ذلك بالحق الثابت الذى لن يتغير ولن يتبدل — فعرفت بذلك أنه يدخل فيه جميع ما يجب الايمان به من السنن والآيات الكونية والعلمية والأصول والعقائد والأعمال والأحكام مع أنه قيد ذلك فى بعض الآيات مثل قوله (قولوا آمنا بالله) الآية ونحوها .

وكذلك ما أمر به من الصلاح والاصلاح ، وما نهى عنه من الفساد والافساد مطلقا، يدخل فيه كل صلاح فى الدنيا والدين كما يدخل فى النهى كل فساد كذلك .

وكذلك قوله (ان الله يحب المحسنين) (وأحسنوا) (للذين أحسنوا الحسنى) (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان)

يدخل فى ذلك كله : الاحسان فى سنن الله وآياته ونعمه وآلائه ليثمر ذلك الاحسان فى عبادة الخالق بأن تعبد الله كأنك تراه . فان لم تكن تراه فانه يراك .والاحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الاحسان من قول وفعل وجاه ، وعلم ومال وغيرها .

وكذلك قوله تعالى (ألهاكم التكاثر) فحذف المتكاثر به ليعم جميع مايقصد الناس فيه المكاثرة : من الرياسات والأموال

والجاه والضيعات ، والأولاد ، وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس الغافلة عن حكمة الله وسننه فيلهيها ذلك عن طاعة الله .

وكذلك قوله تعالى (والعصر إن الانسان لفى خسر) أى فى خسارة لازمة من جميع الوجوه، إلا من اتصف بالايمان والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى الصبر .

وقوله (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) فذكر المسئولين وأطلق المسئول عنه ، ليعم كل ما يحتاج العبد أن يعلمه .

وكذلك أمره بالصبر ومحبته للصابرين وثناؤه عليهم و بيان كثرة أجورهم، من غير أن يقيد ذلك بنوع ، ليشمل أنواع الصبر الثلاثة ، وهى : الصبر على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى أقدار الله .

ومقابل ذلك ذمه للكافرين والظالمين والفاسقين والمشركين، والمنافقين ، والمعتدين ونحوهم ، من غير أن يقيده بشىء ليشمل ذلك جميع المعنى .

ومن هـذا قوله تعالى (فان أحصرتم) ليشمل كل حصر ومنع. ومنه قوله (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) ليعم كل خوف

وقد يقيد ذلك ببعض الامور فيتقيد به ماسيق الكلام لأجله.

وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر الأمثلة عليه لطالت . ولكن

قد فتح لك الباب ، فامش على هذا السبيل المفضى إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم .

القاعدة الخامسة عشرة

جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات ، لتطمين القلوب ، وزيادة الايمان . وهذا فى عدة مواضع من كتابه

فمن ذلك :النصر قال فى إنزال الملائكة به(وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) وقال فى أسباب الرزق ونزول المطر (الله الذى يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته)

وأعم من ذلك : كله قوله (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة)وهى البشرى كل دليل وعلامة تدلهم على أن الله قد أرادلهم الخير وأنهم من أوليائه وصفوته .فيدخل فيه : الثناء الحسن والرؤيا الصالحة . ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف والتوفيق للهدى والعلم والايمان ، والتيسير لليسرى ، وتجنيبهم العسرى

ومن ذلك : بل ألطفه أنه يجعل الشدائد مبشرات بالفرج والعسر مؤذنا باليسر

و إذا تأملت ماقصه عن أنبيائه وأصفيائه وكيف إنه لما

اشتدت بهم الحال ، وضاقت عليهم الارض بما رحبت، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله؟ يأتيهم الجواب من لطف الله بهم ، ومن إيمانهم به و بحكمته ورحمته ، وأخذهم سبيل سننه التى جعلها أسبابا مؤدية إلى النصر ، فيجيبهم الحق من كل ذلك (ألا إن نصر الله قريب) رأيت من ذلك العجب العجاب

وقال تعالى (فان مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً) وقال ﷺ « واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » وأمثلة ذلك كثيرة . والله أعلم

القاعدة السادسة عشرة

حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر ، وشدته فى مقامات الوعيد

وذلك كقوله (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم) (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت) (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً) (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) (ولو ترى إذ وقفوا على النار)

فحذف الجواب فى هذه الآيات وشبهها أولى من ذكره ، ليدل على عظمة ذلك المقام وأنه لهوله وشدته وفظاعته لا يمكن

أن يعبر عنه بلفظ ولا أن يدرك بالوصف .مثله قوله تعالى (كلا لو تعلمون علم اليقين) أى لو علمتم علم اليقين لما أقمتم على ما أنتم عليه من التفريط والغفله واللهو

القاعدة السابعة عشرة

بعض الأسماء الواردة فى القرآن إذا أفرد دل على المعنى العام المناسب له . و إذا قرن مع غيره دل على بعض المعني . ودل ماقرن معه على باقيه

ولهذه القاعدة أمثله كثيرة

منها : الايمان ، أفرده وحده فى آيات كثيرة ، وقرنه مع العمل الصالح ، والصفات الكريمة فى آيات كثيرة

فالآيات التى أفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة . ولهذا يرتب الله عليه حصول الثواب ،والنجاة من العقاب . ولولا دخول المذكورات ماحصلت آثاره.وهو عند السلف : قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح

والآيات التى قرن فيها العمل الصالح : كقوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) يفسر الايمان فيها بما فى القلوب من المعارف والتصديق ، والاعتقاد والانابة . والعمل الصالح : يفسر

بالقيام بجميع الشرائع القولية والفعلية

وكذلك لفظ « البر ،والتقوى » فحيث أفرد البر دخل فيه امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، وكذلك إذا أفردت التقوى ولهذا يرتب الله على البر وعلى التقوى عند الاطلاق : الثواب المطلق ، والنجاة المطلقة . كما يرتبه على الايمان

وتارة يفسر أعمال البر بما يتناول أفعال الخير وترك المعاصى. وكذلك فى بعض الآيات تفسير خصال التقوى ، كما فى قوله (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين : الذين ينفقون فى السراء والضراء) إلى آخر ماذكره من اوصاف المتقين ، التى لاتتم حقيقة التقوى الا بها

وإذا جمع بين البروالتقوى مثل قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) كان« البر » اسماً جامعاً لكل مايحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال،الظاهرة والباطنة.وكانت«التقوى»اسماً جامعاً يتناول ترك جميع المحرمات . وكذلك لفظ «الاثم» و«العدوان» إذا اقترنا فسر الاثم بالمعاصى التى بين العبدو بين ربه ،والعدوان بالتجرى على الناس فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم. وإذا أفرد «الاثم»دخل فيه كل المعاصى التى تؤثم صاحبها،سواء كانت بينه وبين ربه ، أو بينه وبين الخلق .وكذلك إذا أفرد « العدوان »

وكذلك لفظ « العبادة والتوكل»ولفظ « والاستعانة »

إذا أفردت العبادة فى القرآن تناولت جميع مايحبه الله ويرضاه ظاهراً وباطنا . ومن أول وأهم مايدخل فيها : التوكل والاستعانة . وإذا جمع بينها وبين التوكل والاستعانة نحو (إياك نعبد وإياك نستعين) (فاعبده وتوكل عليه) فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة . وفسر التوكل باعتماد القلب على الله فى حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار ، مع الثقة التامة بالله فى حصولها

وكذلك « الفقير والمسكين » إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر . كما فى أكثر الآيات ، وإذا جمع بينهما ، كما فى آية الصدقات وهى قوله (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) فسر الفقير بمن اشتدت حاجته . وكان لايجد شيئاً ، أو يجد شيئاً لايقع منه موقعاً . وفسر « المسكين » بمن حاجته دون ذلك

ومثل ذلك الألفاظ الدالة على تلاوة الكتاب والتمسك به وهو اتباعه ، يشمل ذلك : القيام بالدين كله . فاذا قرنت معه الصلاة كما فى قوله تعالى (اتل ماأوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة) وقوله (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة) كان ذكر الصلاة تعظيما لها وتأكيداً لشانها ، وحثا عليها . وإلا فهى داخلة فى الاسم العام وهو التلاوة والتمسك به وما أشبه ذلك من الأسماء

القاعدة الثامنة عشرة

فى كثير من الآيات يخبر الله بأنه يهدى من يشاء ، و يضل من يشاء . وفى بعضها : يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد ، الموجبة للهداية أو الموجبة للاضلال. وكذلك حصول المغفرة وضدها ، و بسط الرزق وتقديره ، وذلك فى آيات كثيرة ، فحيث أخبر أنه يهدى من يشاء و يضل من يشاء ، و يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء و يرحم من يشاء ، و يبسط الرزق لمن يشاء ، و يقدره على من يشاء. يدل ذلك على كمال توحيده وانفراده بخلق الأشياء ، وتدبير جميع الأمور ، وأن خزائن الأشياء كلها بيده ، يعطى و يمنع و يخفض و يرفع ، فيقتضى مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك وأن يعلقوا أملهم ورجاءهم به وحده فى حصول كل ما يحبون منها ، ودفع كل ما يكرهون وأن لا يسألوا أحدا غيره . كما فى الحديث القدسى «ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم» إلى آخره

وفى البعض الآخر: يذكر فيها أسباب ذلك ، ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية اليها . فيسلكوا النافع و يدعوا الضار كقوله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى و كذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

يبين أن أسباب الهداية والتيسير ايمان العبد بحكمة ربه فى سننه وخلقه وشرعه وأخذه بهذه السنن وانقياده لأمره الشرعى ، و أن أسباب الضلال والتعسير ضد ذلك

وكذلك قوله تعالى فى صفة القرآن (يهدى به الله من اتبع رضوانه) (يهدى به كثيراً و يضل به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين)وقوله(فريقاً هدى وفريقا حق عليهم الضلاله ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) فأخبر أن الله يهدى بالقرآن من كان قصده حسنا ومن يرغب فى الخير ،واتبع رضوان الله ، وأنه يضل من فسق عن سنن الله الحكيمة وتمرد على الله وتولى أعداءه من شياطين الانس والجن ، ورضى بولايتهم عن ولاية رب العالمين

وكذلك قوله تعالى (٦١ : ٥ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة)

وكذلك يذكر فى بعض الآيات الأسباب التى تنال بها المغفرة والرحمة والتى تحق بها كلمة العذاب ، كقوله (و إنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)(٧ : ١٥٦ ، ١٥٧ ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون و يؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمى) وقوله(٧:٥٦

إن رحمة الله قريب من المحسنين) وقوله (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) ثم ذكر الأسباب التى تنال بها المغفرة والرحمة، وهى خصال التقوى المذكورة فى هذه الآية وغيرها: (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) (٢ : ٢٠٤ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) وأعم من ذلك كله قوله تعالى (٣ : ١٣٢ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عموما . وهذه الأسباب المذكورة خصوصا. وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة وكلها راجعة إلى شيئين : التكذيب لله ورسوله . والتولى عن طاعة الله ورسوله ، كقوله تعالى (لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى) وقوله (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى)

وكذلك يذكر أسباب الرزق ، وأنها لزوم طاعة الله ورسوله والسعى الجميل فى مناكب الأرض مع لزوم التقوى ، كقوله تعالى (٦٥: ٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب) وانتظار الفرج والرزق كقوله تعالى (٦٥: ٧ سيجعل الله بعد عسر يسرا) وبكثرة الذكر والاستغفار (١١ : ٣ وأن استغفروا ربكم ثم

توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى و يؤت كل ذى فضل فضله) (٧١ : ١٠ ، ١١ واستغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ـ الآية) فأخبر أن الاستغفار سبب يستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره. وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرى وأمثلة هذه القاعدة كثيرة قد عرفت طريقها . فالزمه

القاعدة التاسعة عشرة

يختم الله الآيات بأسماء الله الحسنى، ليدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم

وهذه القاعدة لطيفة نافعة . عليك بتتبعها فى جميع الآيات المختومة بها . تجدها فى غاية المناسبة ، وتدلك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ، ومرتبط بها .

وهذا باب عظيم فى معرفة الله ومعرفة أحكامه ، وهو من أجل المعارف . وأشرف العلوم .

تجد آية الرحمة مختومة بصفات الرحمة ، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر

ولا بأس هنا أن نسوق بعض الآيات فى هـذا . ونشـير إلى مناسبتها بحسب ماوصل اليه علمنا القاصر . وعبارتنا الضعيفة .

ولو طالت الأمثلة هنا . لأنها من أهم المهمات . ولا تكاد تجدها فى كتب التفسير إلا يسيرا منها

قال تعالى (٢ : ٢٩ فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم) فذكر إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسموات . يدل على إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة . وأنه حكيم حيث وضعها لعباده ، وأحكم صنعها فى أحسن خلق ، وأكمل نظام وأن خلقه لها من أدلة علمه ، كما قال فى الآية الأخرى (٦٧ : ١٤ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟) فخلقه للمخلوقات وتسويتها على ما هى عليه من انسان وحيوان ونبات وجماد : من أكبر الأدلة العقلية على علمه . فكيف يخلقها وهو لا يعلمها ؟

ولما ذكر كلام الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل فى الأرض خليفة ، ومراجعتهم لهم فى ذلك . فلما خلق آدم وعلمه أسماء كل شىء مما جعله الله له و بين يديه ، وعجزت الملائكة عن معرفتها وأنبأهم آدم بها (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) فاعترفوا لله بسعة العلم ، وكمال الحكمة ، وأنهم مخطئون فى مراجعتهم ربهم فى استخلافه آدم فى الأرض التى خلقت له وهيئت لنزوله

وفى هذا : أن الملائكة على عظمتهم وسعة معارفهم بربهم اعترفوا بأن علومهم تضمحل بجانب علم ربهم ، وأنه لاعلم لهم الا منه . فختم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين ، الدالين على علم الله بآدم وما خلق له وما خلق عليه وتمام حكمته فى خلقه ، وما يترتب على ذلك من المصالح المتنوعة : من أحسن المناسبات

وأما قوله عن آدم (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) وختمه كثيراً من الآيات بهذين الاسمين « التواب الرحيم » بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرض من رحمته ومغفرته ، وتوفيقه وحلمه . فمناسبة جليلة لكل أحد . وأنه لما كان هو التواب الرحيم ، أقبل بقلوب التائبين اليه ، ووفقهم للأخذ بالأسباب التى ترجعهم إلى الفطرة السليمة التى يعرفون بها نعمة ربهم فيقدرونها و يشكرونها و يستجيبون لما يدعوهم بها إليه سبحانه ، فيرجعون فى كل شئونهم وأمورهم إلى ربهم ، فيفرح بهم و يزيدهم من فضله و يتوب عليهم . ثم يغفر لهم و يرحمهم ، فتاب عليهم أولا بتوفيقهم للتوبة واسبابها ، وتاب عليهم ثانيا حين قبل متابهم ، وأجاب سؤالهم . ولهذا قال فى

الآية الأخرى (ثم تاب عليهم ليتوبوا) أى أقبل بقلوبهم عليه. فانه لولا توفيقه وجذب قلوبهم إلى ذلك بنعمه الكونية والعلمية لم يكن لهم سبيل إلى ذلك ، حين استولت عليهم النفس الأمارة وركبها العدو المبين بهيميتها وجهلها مطية فانها لا تأمر الا بالسوء والفحشاء ، إلا من رحم ربك . فاعاذه من بهيميتها وجهلها ومن نزغات الشيطان

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كمال قدرته ، وتفرده بالملك . فقال (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) وفى هذا رد على من أنكر النسخ كاليهود واعلام أن نسخه لما ينسخه هو من آثار قدرته وتمام ملكه وحكمته. فانه تعالى يتصرف فى عباده ، ويحكم بينهم بأحكامه القدرية وأحكامه الشرعية ، وهى كلها بالحق والعدل والحكمة البالغة

ولما قال (ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله) قال : (إن الله واسع عليم) أى واسع الفضل ، واسع الملك ، جميع العالم العلوى والسفلى بعض ملكه . ومع سعته فى ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله ، ومحيط علمه بالامور الماضية والمستقبلة ومحيط علمه بما فى التوجه إلى القبلة من الحكمة ، ومحيط علمه

بنيات المستقبلين لكل جهة من الجهات إذا أخطؤا القبلة المعينة عن غير قصد ولا عمد حيث ولى المصلى منهم فما قصد إلا وجه ربه

وأما قول الخليل واسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) فانه توسل إلى الله بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل ، حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما ، ويسمع كلامهما ويجيب دعاءهما فانه يراد بالسميع فى مقام الدعاء : دعاء العبادة ودعاء المسألة — معنى المستجيب . كما قال قال الخليل فى الآية الأخرى (إن ربى لسميع الدعاء)

وأما ختم قوله (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) بقوله (إنك أنت العزيز الحكيم) فمعناه : كما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة . ففيه تمام عزتك . وكمال حكمتك. فانه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يترك الخلق سدى هملا ، لا يرسل اليهم رسولا . فحقق الله حكمته ببعثته خاتما ، كما حقق حكمته ورحمته ببعثة إخوانه المرسلين من قبله . لئلا يكون للناس على الله حجة . والامور كلها : قدريها وشرعيها ، لا تقوم إلا بعزة الله ، ونفوذ حكمه

وقد يكتفى الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها . لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم

العظيم ، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام

مثل قوله تعالى (فان زللتم من بعد ماجاءتكم البينات) لم يقل : فعليكم من العقوبة كذا ، بل قال (فاعلموا أن الله عزيز حكيم) أى فاذا عرفتم عزته ، وهى قهره وغلبته ، وقوته وامتناعه وعرفتم حكمته ، وهى وضعه الأشياء موضعها ، وتنزيلها محالها أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم ، لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة : وهو المصر على الذنب مع علمه، وأنه ليس لكم امتناع عليه ، ولا خروج عن حكمه وجزائه. لكمال قهره وعزته

وكذلك لما قال فى سورة المائدة (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) لم يقل : فاعفوا عنهم ، أو اتركوهم ونحوها بل قال (فاعلموا أن الله غفور رحيم) يعنى فاذا عرفتم ذلك وعلمتموه عرفتم أن من تاب وأناب فان الله يغفر له و يرحمه . فيدفع عنه العقوبة و يمده بالقوة على الطاعة فكذلك فاعفوا عنه إذا استحق العفو

ولما ذكر عقوبة السارق قال فى آخرها (نكالا من الله والله عزيز حكيم) أى عز وحكم . فقطع يد السارق ، وعز وحكم فعاقب المعتدين شرعا وقدراً . وجزاء

ولما ذكر مواريث الورثة، وقدرها فى سورة النساء قال (فريضة من الله . إن الله كان عليما حكيما) فكونه عليما حكيما يعلم مالا يعلم العباد، و يضع الاشياء مواضعها . فاخضعوا لما قاله، وفصله وحكم به فى توزيع الأموال على مستحقيها الذين يستحقونها بعلم الله وحكمته . فلو وكل العباد إلى أنفسهم، وقيل لهم : وزعوها أنتم بحسب اجتهادكم لدخلها الجهل والهوى ، والغى والظلم . وصارت المواريث فوضى وسبباً فى إراقة الدماء ، وحصل من ذلك من الضرر ما الله به عليم . ولكن تولاها هو وقسمها بأحكم قسمة واوفقها للاحوال ، وأقربها للنفع .

ولهذا من قدح فى شىء من أحكامه ، أو قال : لو كان كذا وكذا فهو كافر لأنه قادح فى علم الله وفى حكمته .

ولهذا يذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام ، كما يذكرها فى آيات الوعيد ليبين للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته ، غير خارج عن علمه

ويختم الأدعية باسماء تناسب المطلوب . وهذا من الدعاء بالاسماء الحسنى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) أى تعبدوا لله بدعائه بها ، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم

وقوله تعالى فى سورة الحج (ليدخلنهم مدخلا يرضونه و إن الله لعليم) والآيات المتتابعة التى بعدها . كل واحدة ختمت باسمين كريمين

فالأولى منها هذه : ختمُها بالعلم والحلم : يقتضى علمه بنياتهم الجميلة ، وأعمالهم الجليلة ومقاماتهم الشامخة ، فيجازيهم على ذلك بالفضل العظيم ، و يعفو و يحلم عن سيئاتهم . فكأنهم مافعلوها .

وختمُ الثانية بالعفو الغفور . فانه أباح المعاقبة بالمثل . وندب إلى مقام الفضل ، وهو العفو وعدم معاقبة المسىء ، وأنه ينبغى لكم أن تعبدوا الله بالتخلق بهذين الوصفين الجليلين لتنالوا عفوه ومغفرته .

وختمُ الآية الثالثة بالسميع البصير ، يقتضى سمعه لجميع أصوات ماسكن فى الليل والنهار ، و بصره بحركاتهم على اختلاف الأوقات وتباين الحالات .

وختمُ الآية الرابعة : بالعلى الكبير . لأن علوه المطلق وكبرياءه وعظمته ومجده ، تضمحل معها جميع المخلوقات و يبطل معها كل ما عبد من دونه ، و باثبات كمال علوه وكبريائه . يتعين أنه هو الحق وما سواه هو الباطل .

وختمُ الآية الخامسة : باللطيف الخبير، الدالين على سعة علمه

ودقيق خبرته بالبواطن . كالظواهر، و بما تحتوى عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات ، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق ، بما أنزله من الماء النمير ، والخير الغزير.

وختمُ الآية السادسة : بالغنى الحميد ، بعد ماذكر ملكه للسموات والأرض ، وما فيهما من المخلوقات ، وأنه لم يخلقها لحاجة منه لها. فانه الغنى الغنى المطلق ، ولا ليتكمل بها . فانه الحميد الكامل ، وليدلهم على أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه ، فبغناه تفضل عليهم فسخر لهم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، لأنه الجميل الذى يفعل كل جميل و يسدى إلى عباده كل جميل ، يستوجب عليهم أن يعرفوه الحميد فى أقداره ، الحميد فى شرعه ، الحميد فى جزائه فله الحمد المطلق ذاتا وصفاتا وأفعالا.

وختمُ الآية السابعة : بالرؤوف الرحيم ، فان من رأفته ورحمته تسخيره المخلوقات لبنى آدم وحفظ السموات والأرض و إبقاؤها وامساكها لئلا تزول، فتختل مصالحهم .ومن رحمته سخر لهم البحار لتجرى فيها الفلك فى منافعهم ومصالحهم. فرحمهم حيث خلق لهم المسكن وأودع لهم فيه كل ما يحتاجونه ، وحفظه عليهم وأبقاه .

ولما ذكر فى سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم ، ختم كل قصة بقوله (و إن ربك لهو العزيز الرحيم) فان كل قصة

تضمنت نجاة النبي وأتباعه .وذلك برحمة الله ولطفه ، وتضمنت إهلاك المكذبين له . وذلك من آثار عزته .

وقد يتعلق مقتضى الاسمين بكل من الحالتين . فانه نجى الرسل وأتباعهم بكمال قوته وعزته ورحمته ، وأهلك المكذبين بعزته ورحمته . ويكون ذكر الرحمة دالا على عظم جرمهم ، وأنه طالما فتح لهم أبواب رحمته بآياته ونعمه ورسله . فاغلقوها دونهم بتمردهم على الله وكفرهم وشركهم فلم يكن لهم طريق إليها ، ولولا ذلك لما حل بهم هذا العقاب الصارم .

وأما قول عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) ولم يقل : أنت الغفور الرحيم . لان المقام ليس مقام استعطاف واسترحام . وإنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه وأمه آلهين من دون الله. فناسب ذكر العزة والحكمة . وصار أولى من ذكر الرحمة والمغفرة .

ومن ألطف مقامات الرجاء: أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة ، ثم يختمها بما يدل على الرحمة .

مثل قوله : (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) وقوله (ليعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات . وكان الله غفوراً رحيما)

فذلك يدل على أن رحمته سبقت غضبه ، وغلبته ، وصار لها الظهور ، و إليها ينتهى كل من فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة ولهذا يخرج من النار من كان فى قلبه أدنى حبة خردل من الايمان ولنقتصر على هذه الأمثلة فانه يعرف بها كيفية الاستدلال بذلك

القاعدة العشرون

القرآن كله محكم باعتبار ، وكله متشابه باعتبار ، و بعضه محكم و بعضه متشابه باعتبار ثالث .

وقد وصفه الله تعالى بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاث .

فوصفه بأنه محكم فى عدة آيات ، وأنه (أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) ومعنى ذلك: أنه فى غاية الأحكام وقوة الاتساق ، وأنه بالغ فى الحكمة أقصى غاية . فاخباره كلها حق وصدق . لاتناقض فيها ولا اختلاف . وأوامره كلها خير وهدى و بركة وصلاح . ونواهيه عن كل مايعود على الانسان بالشرور والضرر والأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة . فهذا إحكامه .

ووصفه بأنه متشابه فى قوله من سورة الزمر (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها) أى متشابها فى الحسن والصدق والهدى والحق . وروده بالمعانى النافعة المزكية للعقول ، المطهرة للقلوب

المصلحة للاحوال . فألفاظه أحسن الألفاظ ، ومعانيه أحسن المعاني، كما وصف ثمرات الزروع والفواكه التى أنعم بها على الانسان وجعل فيها كل نافع صالح لجسمه وغذائه. فقال فى سورة الأنعام (وهو الذى انشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله . والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه) ووصف طيبات الجنة وثمراتها الدانية بقوله فى سورة البقرة (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا بها متشابها)

ووصفه بأن (منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات) فهنا وصفه بأن بعضه هكذا و بعضه هكذا . وأن الذين ارسخت قلوبهم وثبتت بالفقه والفهم عن الله، فثبتوا ثبات الجبال الراسخة ، لا تزلزلهم الشبهات ولا الشهوات، لانهم يردون المتشابه منه إلى المحكم . فيصير كله محكما ، ويقولون : (كل من عند ربنا) أى وما كان من عنده فلا تناقض فيه ، فما اشتبه منه فى موضع فسره الموضع الآخر المحكم . فحصل العلم وزال الاشكال .

ولهذا النوع أمثلة . منها : ماتقدم من الاخبار بأنه على كل

شيء قدير ، وأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء .

فاذا اشتبهت آيات على من ظن به خلاف الحكمة ، وأن هدايته وإضلاله جزافا لغير سبب كشفت هذا الاشتباه وجلته الآيات الأخر الدالة على أن هدايته لها أسباب ، يفعلها العبد ، ويتصف بها مثل قوله فى سورة المائدة (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وأن إضلاله لعبده له أسباب فى العبد ، وهو توليه للشيطان قال فى سورة الأعراف (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) وفى سورة الصف (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .

وإذا اشتبهت آيات على الجبرى الذى يرى أن العباد مجبورون على أفعالهم بينتها الآيات الأخر الكثيرة الدالة على أن الله لم يجبر العباد ، وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم ، وأضافها إليهم فى آيات غير منحصرة .

كما أن هذه الآيات التى أضاف الله فيها الأعمال إلى العباد حسنها وسيئها ، إذا اشتبهت على القدرية النفاة ، فظنوا أنها منقطعة عن قضائه وقدره ، وأن الله ماشاءها منهم ولا قدرها . تليت

عليهم الآيات الكثيرة الصريحة الدالة على تناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان والأعمال والأوصاف ، وأن الله خالق كل شيء .

ومن ذلك : أعمال العباد ، وأن العباد ما يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين .

وقيل للطائفتين : إن الآيات والنصوص كلها حق ، و يجب على كل مسلم تصديقها والايمان بها كلها . وأنها لا تتنافى ، فالطاعات والمعاصي واقعة منهم و بقدرتهم و إرادتهم ، والله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم و إرادتهم .

وما أجمل فى بعض الآيات فسرته آيات أخر . ومالم يتوضح فى موضع توضح فى موضع آخر .

وما كان معروفا بين الناس وورد فيه القرآن أمرا ونهيا ، كالصلاة والزكاة ، والزنى والظلم ، ولم يفصله ، فليس مجملا ، لأنه أرشدهم إلى ما كانوا يعرفون ، وأحالهم على ما كانوا به متلبسين ، فليس فيه إشكال بوجه . والله أعلم .

القاعدة الحادية والعشرون

القرآن يجرى فى إرشاداته مع الزمان والمكان والأحوال فى أحكامه الراجعة للعرف والعوائد .

وهـذه قاعدة جليلة المقدار ، عظيمة النفع . فان الله أمر عباده بالمعروف . وهو ما عرف حسنه شرعا وعقلا وعرفا ، ونهاهم عن المنـكر ، وهـو ما ظهر قبحه شرعا وعقـلا وعرفا . وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، ووصفهم بذلك .

فما كان من المعروف لا يتغير فى الأحوال والأوقات كالصلاة والزكاة ، والصوم ، والحج ، وغيرها من الشرائع الراتبة والأخلاق الـكريمة ، من البر والاحسان ، والمروءة والشجـاعة ، والفهم والاعتبـار بكل ما يعرض للانسـان ويقع له وعليه . فانه أمر به فى كل وقت . والواجب على الآخرين نظير الواجب على الأولين من هذه الأمة . وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات كالشرك والقتل بغير حق ، والزنا وشرب الخمر ، ونحوها من كل ما هو ضد المعروف ثبتت فى كل زمان ومكان . لا يتغير . ولا يختلف حكمه .

وما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة والأحوال ،

فهو المراد ههنا . فان الله تعالى يردهم فيه إلى العرف والعادة والمصلحة المتعينة فى ذلك الوقت .

وذلك أنه أمر بالاحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال ، ولم يعين لعباده نوعا خاصا من الاحسان والبر ، ليعم كل ما تجدد من الأوصاف والأحوال ، فقد يكون الاحسان إليهم فى وقت غير الاحسان فى الوقت الآخر ، وفى حق شخص دون الشخص الآخر .

فالواجب الذى أوجبه الله : هو النظر فى الاحسان المعروف فى وقتك ومكانك ، فى حق والديك .

ومثل ذلك : ما أمر به من الاحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب ونحوهم . فان ذلك راجع فى نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحسانا . ولا يكون معارضا للمعروف من التشريع

وكذلك ضده من العقوق والاساءة ، ينظر فيه إلى العرف وكذلك قوله تعالى فى سورة النساء (وعاشروهن بالمعروف) وفى سورة البقرة (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) ، فرد الله الزوجين فى عشرتهما وأداء حق كل منهما إلى الآخر إلى المعروف المعتاد عند الناس فى قطرك ، و بلدك وحالك ومركزك الاجتماعى .

وذلك يختلف اختلافا عظيما . لا يمكن إحصاؤه عدا . فدخل ذلك كله فى هذه النصوص المختصرة. وهذا من آيات إحكام القرآن و براهين صدقه .

وقال تعالى فى سورة الأعراف (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا) فقد أباح لعباده الأكل والشرب واللباس ، ولم يعين شيئا من الطعام والشراب واللباس ، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة ، فتتعلق بها الاباحة حيث كانت ، لا ينظر إلى ما كان موجودا منها وقت نزول القرآن أو غير موجود .

وكذلك قوله فى سورة الأنفال (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ومن المعلوم : أن السلاح والقوة التى كانت موجودة وقت نزول القرآن غير نوع السلاح والقوة التى وجدت بعد ذلك .

فهذا النص يتناول كل مستطاع من القوة فى كل وقت بحسبه و بما يناسبه و يليق به .

وكذلك لما قال تعالى ، فى سورة النساء (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) لم يعين لنا نوعا من التجارة ولا جنسا . ولم

يحدد لنا ألفاظا يحصل بها الرضى فى البيع والتجارة ، وهذا يدل على أن الله أباح كل ما تجرى فيه تجارة ما لم ينه عنه الشارع ، أو لا يحصل وأن كل ما حصل به الرضى من الأقوال والافعال انعقدت به التجارة ، فما حقق الرضى من قول أو فعل ، انعقدت به المعاوضات والتبرعات والمعاملات .

وفى القرآن من هذا النوع شىء كثير .

القاعدة الثانية والعشرون

فى مقاصد مايضرب القرآن من الأمثال :

إعلم أن القرآن احتوى على أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التى يحتاج الخلق إليها فى جميع الأنواع ، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم ، و إيصال المعانى إلى القلوب بأيسر شىء وأوضحه

فمن أنواع تعليمه العالى : ضرب الأمثال ، وهذا النوع يذكره البارى سبحانه فى الأمور المهمة ، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله ، والأعمال العامة الجليلة . ويقصد بذلك كله توضيح المعانى النافعة ، وتمثيلها بالأمور المحسوسة ، ليصير القارىء كأنه يشاهد معانيها رأى عين .

وهذا من عناية البارى بعباده ولطفه بهم

فقد مثل الله الوحى والعلم الذى أنزله على رسوله فى عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء ، وقلوب الناس بالأرض والأودية ، وأن عمل الوحى والعلم فى القلوب كعمل الغيث والمطر فى الأرض ، فمنها : أرض طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير . كمثل القلوب الفاهمة التى تفهم عن الله ورسوله وحيه وكلامه ، وتعقله ، وتعمل به علما وتعليما بحسب حالها . كالارض بحسب حالها . ومنها أرض تمسك الماء ولا تنبت الكلأ ، ينتفع الناس بالماء الذى تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأرضهم ، كالقلوب التى تحفظ الوحى من القرآن والسنة وتلقيه إلى الأمة. ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة والانتفاع بمعانيه والتغذى بغذائه ما عند الأولين .

ومنها : أرض لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء . كمثل القلوب التى لا تنتفع بالوحى لا علما ولا حفظا ولا عملا

ومناسبة الأرض للقلوب كما ترى فى الظهور . وأما مناسبة تشبيه الوحى بالغيث فكذلك . لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية . والوحى فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية

وكذلك مثل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التى أكلها دائم كل حين باذن ربها . لأن شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها لأنها غرس معرفة وتصديق وتفكر وتدبر لآيات الله وتؤتى أكلها تقوى و إيمانا ، و إرادة لموجبها ، وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية ، والأعمال الصالحة والهدى المستقيم ، دائمة فى نفع صاحبها وانتفاع الناس به . وهى صاعدة إلى السماء لاخلاص صاحبها وعلمه و يقينه

ومثل الله الشرك والمشرك الذى اتخذ مع الله إلها يتعزز به . ويزعم أنه سينال منه النفع ، ودفع الضرر بأن اتخاذه هذا فى ضعفه ووهنه كالعنكبوت اتخذت بيتا وهو أوهن البيوت وأوهاها. فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا إلى ضعفها . كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه وليا ونصيرا من دون الله إلا ضعفا . لأن قلبه انقطع عن الله . ومن انقطع قلبه عن الله حله الضعف من كل وجه ، وتعلقه بالمخلوق زاده وهنا إلى وهنه ، فانه اتكل عليه ، وظن منه حصول المنافع ، فخاب ظنه وانقطع أمله ، وأما المؤمن فانه قوى بقوة إيمانه بالله وتوحيده تعلق بالله وحده ، لأنه يوقن أنه الذى بيده الأمر والنفع ، ودفع الضرر ، وهو المتصرف فى أحواله كلها فهو العبد الذى استقام على صراط مستقيم فى أقواله وأفعاله ،

منطلق الارادة تحرر عن رق المخلوقين ، غير مقيد لهم بوجه من الوجوه ، بخلاف المشرك فانه كالعبد الأبكم الذى هو كل وعالة على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، لأن قلبه متقيد للمخلوقين مسترق لهم ، ليس له انطلاق ولا تصرف فى الخير ولا شعور به

ومثل المشرك أيضا بالذى خر من السماء فتخطفته الطير . ومزقته كل ممزق .

ومثل فى سورة الحج لآلهة المشركين وأوليائهم هؤلاء الذين زعمو أنهم ينفعون فيدعونهم بأنهم كالذباب بل أضعف من الذباب إذ لو اجتمعوا كلهم على خلق أضعف المخلوقات، وهو الذباب لم يقدروا باجتماعهم على خلقه ، فكيف ببعضهم ، فكيف بفرد من مئات الألوف منهم . وأبلغ من ذلك أن الذباب لو يسلبهم شيئا لا يقدرون على استخلاصه منه ورده ، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذى وقع فيه المشرك غرور ؟ وهو مع هذا الغرور وهذا الوهن والضعف، مقسم القلب بين عدة آلهة كالعبد بين الشركاء المتشاكسين لا يتمكن من إرضاء أحدهم ، دون الآخر . فهو معهم فى شر دائم وشقاء متراكم . فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لرثأ بنفسه عما هو عليه ، ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعد ما أضاع دينه . وأما الموحد فانه خالص

لربه ، لايعبد إلا خالقه وبارئه ولا يرجو غيره ولا يخشى سواه فقد اطمأن قلبه ، واستراح ضميره ، وعلم أنه الحق ، وأن عاقبته أحمد العواقب ، ومآله الخير والفلاح والسعادة الأبدية ، فهو فى حياة طيبة ، ويطمع فى حياة أطيب منها فى الدنيا والآخرة

ومثل الله الأعمال بالبساتين. فذكر العمل الكامل الخالص لله الذى لم يعرض له مايفسده كبستان فى أحسن المواضع ، وأعلاها تنتابه الرياح النافعة ، وقد ضحى وبرز للشمس ، وفى خلاله الأنهار الجارية المتدفقة . فان لم تكن غزيرة فانها كافية له كالطل الذى ينزل من السماء . ومع ذلك فأرضه أطيب الأراضى وأزكاها فمع توفر هذه الشروط لاتسأل عما هو عليه من زهاء الأشجار وطيب الظلال ، ووفور الثمار ، فصاحبه فى نعيم ورغد متواصل وهو آمن من انقطاعه وتلفه ولثقته ويقينه بحفظ مولاه وسيده وفاطره ومعبوده له ، فهو مطمئن لحفظ وكلاءة أرحم الراحمين ، الحى القيوم الذى لاتأخذه سنة ولا نوم . فأما الآخر الذى قد ركن إلى غير بارئه وفاطره ، فاعتمد على الميت الذى لايملك لنفسه نفعا ولا ضراً ، ووثق به وفوض إليه حراسته وكلاءته فى ماله وولده . فالله يغضب عليه أشد الغضب ، ويبعث على بستانه الأعاصير والآفات المتلفة المهلكة ، فلا تغنى عنه آلهته وأولياؤه من شىء

فيقلب كفيه حسرة وندامة ، وقد كبر سنه ونالت منه الشيخوخة والهرم ، فضعف عن العمل ، وعنده أسرة ضعاف لا مساعدة منهم ولا غناء فيهم . وكان قد اغتبط به حيث كان مادة حياته وحياة أسرته . فكيف تكون حسرة هذا المغرور ؟ وكيف تكون مصيبته ؟ وهذا هو الذى جاء بعد العمل الصالح بما يبطله من الشرك والنفاق والمعاصى المحرقة . فيا ويله ، بعد ما كان بستانه زاكياً زاهياً أصبح تالفاً على عروشه خاويا . قد أيس من عوده ، وبقى يحسرته مع أسرته .

فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها . فقد ذكر الله عاقبة من ثبته الله على الايمان ، والعمل الصالح . وعاقبة من أبطل عمله بما ينافيه ويضاده .

ووجه تشبيه الأعمال بالبساتين : أن البساتين تمدها عدة قوى تطيبها وتجعلها نافعة مثمرة . منها طيب الأرض وقوة ما فيها من مواد الاخصاب . ومنها : يقظة صاحبها وعلمه بفنون استثمار أرضه وبستانه . ومنها : المياه . فكذلك الأعمال يمدها طيب عنصر القلب وتخليته من المواد المفسدة ، وتحليته بكثرة تفكره فى آيات الله الكونية فى الأنفس والآفاق ، وتدبره لآيات الوحى المنزل لحياة القلوب الطيبة . وقد جمع العامل جميع شروط قبول

العمل من الاجتهاد والاخلاص والمتابعة . فاثمر عمله كل زوج بهيج .

وقد مثل الله عمل الكافر بالسراب الذى يحسبه الظمآن ماء . فحين يأتيه ، وقد اشتد به الظمأ ، وأنهكه الاعياء ، يجده سرابا .

ومثله برماد الشيء المحترق ، فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية . وهذا مناسب لحال الكافر و بطلان عمله . فان كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة لكل ما يأتى من عمل ، فيدعه ترابا يظنه بجهله وغبائه وتقليده الأعمى أعمالا صالحة — ، فاذا جاءها يرجو ثوابها قدم الله إليها فجعلها هباءاً منثوراً .

والسراب هو : مايتخيله الظمآن فى الصحراء المحرقة أمامه ماء . فلا يزال يسعى و يجهد نفسه حتى يهلك ظمأ . فهذا مثل عمل المرتكس فى ظلمات التقليد لآبائه وشيوخه يجتهد فى العمل الليل والنهار يعتقده نافعا . فاذا وصل إليه بالموت لم يجده شيئا فتقطعت نفسه حسرات . ووجد الله عنده فوفاه حسابه .

كما مثل نفقات المخلصين بذلك البستان الزاهى .

ومثل نفقات المرائين بحجر أملس عليه شيء من تراب ، فأصابه مطر شديد فتركه صلدا لاشيء عليه ، لأن قلب المرائى لا إيمان فيه ولا تصديق ولا إخلاص ، فهو قاس كالحجر ، فنفقته حيث لم تصدر عن إيمان ، بل عن رياء وحب للسمعة . لم تؤثر

فى قلبه حياة ولا زكاة . كهذا المطر الذى لم يؤثر فى هذا الحجر الأملس شيئا .

وهذه الأمثال إذا طبقت على ممثلاتها أوضحتها وبينت مراتبها من الخير والشر ، والكمال والنقصان.

ومثل الله حال المنافقين بحال من هو فى ظلمة . فاستوقد ناراً من غيره ، فلما أضاءت ماحوله وتبين له الطريق ذهب نوره ، وانطفأ ضوءه . فبقى فى ظلمة عظيمة أعظم من الظلمة التى كان فيها ، وهكذا المنافق استنار بنور الايمان . فلما تبين له الهدى غلبت عليه الشقوة ، واستولت عليه الحيرة : أيبقى على دين الآباء والشيوخ ، أم يخرج عنه إلى دين الهدى والحق وما يقتضيه من الطاعات والاعمال ؟ فغلب عليه شيطان التقليد ورده إلى ظلمات (إنا وجدنا آباءنا على أمة) فذهب عنه نوره أحوج ما يكون إليه . و بقى فى ظلمته متحيراً . فهم لا يرجعون لأن سنة الله فى عباده أن من بان له الهدى ، واتضح له الحق ثم رجع عنه أن يحرم التوفيق بعد ذلك للهداية ، لأنه رأى الحق فتركه ، وعرف الضلال فاتبعه .

وهذا المثل ينطبق على المنافقين الذين تبصروا وعرفوا ، ثم غلبت عليهم الأغراض الضارة فتركوا الايمان .

والمثال الثانى وهو قوله : (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد و برق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين) ينطبق على حال ثانيه للمنافقين الضالين المتحيرين الذين يسمعون القرآن فلم يعرفوا المراد منه . لأنهم أعرضوا عنه ،وكرهوا سماعه اتباعا لرؤسائهم وسادتهم .

ومثل الله الحياة الدنيا وزهرتها والاغترار بها بحالة زهرة الربيع ، تعجب الناظرين ، وتغر الجاهلين ، فيظنون بقاءها ، ولا يؤملون زوالها . فلهوا بها عما خلقوا له . فأصبحت عنهم زائلة وأضحوا لنعيمها مفارقين فى أسرع وقت كهذا الربيع ، إذا أصبح بعد الاخضرار هشيما ، و بعد الحياة يبسا رميما .

وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البر والفاجر . ولكن سكرة الشهوات وضعف داعى الايمان اقتضى إيثار العاجل على الآجل .

القاعدة الثالثة والعشرون

إرشادات القرآن على نوعين :

أحدهما : أن يرشد أمراً ونهيا وخبراً إلى أمر معروف شرعا أو معروف عرفا كما تقدم .

والنوع الثانى : أن يرشد العبد إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة ، وأن يعمل الفكر فى استفادة المنافع منها وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر .

أما النوع الأول : فأكثر إرشادات القرآن فى الأمور الخبرية والأمور الحكمية :

وأما النوع الثاني ، وهو المقصود هنا ـ فانه دعا عباده فى آيات كثيرة إلى التفكر فى خلق السموات والأرض ، وماخلق الله فيها من العوالم ، و إلى النظر فيها. وأخبر أنه سخرها لمصالحنا ومنافعنا . وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) فنبه العقول على التفكر فيها ، واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها .

فاننا إذا فكرنا فيها ، ونظرنا حالها ، وأوصافها ، وانتظامها لاى شيء خلقت ولأى شيء أبقيت ؟ وماذا فيها من الآيات وما احتوت عليه من المنافع ؟ أفادنا هذا التفكر فيها علمين جليلين .

أحدهما : أننا نستدل بها على مالله من صفات الكمال والعظمة ، والحكم البالغة ، وما له من النعم الواسعة والأيادى

المتكاثرة ، وعلى صدق ما أخبر به من المعاد والجنة والنار ، وعلى صدق رسله، وحقية ماجاءوا به من عنده.

وهذا النوع قد أكثر أهل العلم من الاستشهاد به. وكل عالم ومحقق قد ذكر منه ما وصل إليه علمه وما بلغه تفكيره وفهمه، فان الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولو الألباب ، وكل واد يسيل بهدى القرآن بحسبه

وهذا أجل العلمين وأعلاهما ، وأكملهما

والعلم الثانى : أننا نتفكر فيها لنستخرج منها المنافع المتنوعة فان الله سخرها لنا وجعلها طوع علومنا وأعمالنا . وسلطنا على استخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية . فذلل لنا أرضها وما ادخر فيها من بركات وكنوز ومعادن ومواد نافعة لنحرثها ونزرعها ونغرسها ، ونستخرج منها ما نتخذه لحاجاتنا المعاشية من الصناعات النافعة . فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها — لاسيما فى هذه الأوقات — كل ذلك داخل فى تسخيرها لنا . وقد عرفت الحاجة بل الضرورة فى هذه الأوقات إلى استنباط المنافع وترقية الصنائع إلى مالا حد له . وقد ظهر فى هذه الأوقات من موادها وعناصرها ما فيه فوائد عظيمة للخلق

وقد تقدم لنا فى قاعدة اللازم : أن مالا تتم الأمور المطلوبة

إلا به فهو مطلوب بطلبها . وهذا يدل على أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعا . كما هى مطلوبة لازمة عقلا . وأنها من الجهاد فى سبيل الله ، ومن علوم القرآن

فان الله نبه العباد أنه جعل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه سخر لهم ما فى الأرض . فعليهم أن يسعوا لتحصيل هذه المنافع من أقرب الطرق . وهى لا تعرف إلا بالبحث والتنقيب والتجارب المتكررة والدراسات المناسبة لكل نوع منها . وهذا من آيات القرآن . وهو أكبر دليل على سعة علم الله . وحكمته ورحمته بعباده بأن أباح لهم جميع النعم ، و يسر لهم الوصول إليها بطرق لا تزال تحدث وقتا بعد وقت . وقد أخبر أن القرآن تذكرة يتذكر به العباد فى كل زمان ومكان ، وأنه هداية لجميع المصالح

القاعدة الرابعة والعشرون

القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال . و يذم التقصير والغلو ومجاوزة الحد فى كل الأمور

قال تعالى (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) وقال (قل أمر ربي بالقسط) والآيات الآمرة بالعدل والاحسان والناهية عن ضدهما كثيرة

والعدل فى كل الأمور : لزوم الحد فيها. وأن لا يغلو و يتجاوز الحد ، كما لا يقصر و يدع بعض الحق

ففى عبادة الله أمر بالعدل وهو بالتمسك بما كان عليه النبى ﷺ ونهى عن مجاوزة ذلك ، وتعدى الحدود وذم المقصرين ، فى آيات كثيرة .

فالعبادة التى أمر الله بها ماجمعت الاخلاص للمعبود . والمتابعة للرسول . فاذا خلت من الأمرين أو أحدهما . فهى لاغية

وفى حق الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أمر بالاعتدال وهو الايمان بهم ، ومحبتهم المقدمة على محبة الخلق ، وتوقيرهم واتباعهم ، ومعرفة أقدارهم ، ومراتبهم التى أكرمهم الله بها . ونهى فى آيات كثيرة عن الغلو فيهم وأن يرفعوا فوق منزلتهم التى أنزلهم الله . و يجعل لهم من حقوق الله التى لا يشاركه فيها مشارك . كما نهى عن التقصير فى حقهم بتكذيبهم أو ترك محبتهم وتوقيرهم . أو عدم اتباعهم . وذم الغالين فيهم ، كالنصارى ونحوهم فى عيسى . كما ذم الجافين لهم ، كاليهود حين قالوا فى عيسى ما قالوا ، وذم من فرق بينهم . فآمن ببعض دون بعض . وأخبر أن هذا كفر بجميعهم

وكذلك الأمر فى حق العلماء والاولياء فيجب محبتهم

ومعرفة أقدارهم ، ولا يحل الغلو فيهم و إعطاؤهم شيئـا من حق الله،ولا شيئامن حق رسوله الخاص . ولا يحل مجافاتهم ولا عداوتهم فمن عادى لله وليا فقد بارزه بالحرب

وأمر بالتوسط فى النفقات والصدقات. ونهى عن الامساك والتقصير والبخل ، كما نهى عن الاسراف والتبذير

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال . ونهى عن الجبن ، وذم الجبناء ، وأهل الخور ، وضعفاء النفوس ، كما ذم المتهـورين الذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة.

وأمر وحث على الصبر فى آيات كثيرة ، ونهى عن الجزع والهلع ، والتسخط ، كما نهى عن التجبر ، والقسوة

وأمر بأداء الحقوق لـكل من له حق عليك : من الوالدين وذوى القربى والجار ، والاخوان والولاة والحكام والاجراء والطلبة وغيرهم من كل ذى حق هـو فرع حق الله سبحانه وتعالى تفهمه وتعرفه وتؤديه بالمعروف والاحسان اليهم قولا وفعلا . وذم من قصر فى حقهم أو أساء إليهم قولا وفعلا. كما ذم من غلا فيهم وفى غيرهم حتى قدم رضاهم على رضا الله وطاعتهم على طاعة الله.

وأمرنا بالاقتصـاد فى الأكل والشرب واللباس والحركة والمشى والصوت ونهى عن التجاوز والاسراف فى كل ذلك كما

حذر أشد التحذير من الترف ونهى عن التقصير الضار بالروح والجسم و بالجملة فإن الله العليم الحكيم أمر بالوسط فى كل شيء بين خلقين ذميمين. تفريط و إفراط. وقال (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً)

القاعدة الخامسة والعشرون

حدود الله قد أمر بحفظها . ونهى عن تعديها وقربانها

قال تعالى (والحافظون لحدود الله) وقال (تلك حدود الله فلا تعتدوها) و (تلك حدود الله فلا تقربوها)

أما حدود الله : فهى ماحده لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة ، التى أمرهم بفعلها ، ومن المحرمات التى أمرهم بتركها . فالحفظ لها يكون باداء الحقوق اللازمة ، وترك المحرمات الظاهرة والباطنة .

و يتوقف هذا على معرفة الحدود على وجهها . ليعرف مايدخل فى الواجبات والحقوق ، فيؤديها على ذلك الوجه كاملة ، غير منقوصة ، وما يدخل فى المحرمات ليتمكن من تركها ، ولئلا يلبس الشيطان عليه بعضا منها . ولهذا ذم الله من لم يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله . وأثنى أطيب الثناء على من عرف ذلك

وحيث قال تعالى (تلك حدود الله فلا تعتدوها) كان المراد

بها : ماأحله لعباده ، وما فصله من الشرائع . فانه نهى عن مجاوزتها وأمر بملازمتها .

كما أمر بملازمة ماأحله من الطعام والشراب واللباس والنكاح ونهى عن تعدى ذلك إلى ماحرم من الخبائث

وكما أمر بملازمة ماشرعه من الأحكام فى النكاح ، والطلاق والعدة وتوابع ذلك. ونهى عن تعدى ذلك إلى فعل مالايجوز شرعا

وكما أمر بالمحافظة على مافصله من أحكام المواريث ولزوم حده . ونهى عن تعدى ذلك ، وتوريث من لايرث وحرمان من يرث . وتبديل مافرضه وفصله بغيره

وحيث قال تعالى (تلك حدود الله فلا تقربوها) كان المراد بذلك : المحرمات . فان قوله (فلا تقربوها) نهى عن الدنو والقرب منها من أى ناحية من نواحيها . فهو نهى عن مقدماتها ونهى عن أسبابها الموصلة إليها والموقعة فيها ونهى عن فعلها من باب أولى

كما نهاهم عن المحرمات على الصائم . وبين لهم وقت الصيام فقال (تلك حدود الله فلا تقربوها) وكما حرم على الأزواج أن يأخذوا مما آتوا أزواجهم شيئاً ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، ثم قال (تلك حدود الله فلا تقربوها) وكما بين المحرمات فى قوله (ولا تقربوا الزنا) (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن)

وفى الخمر والميسر انهما (رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه)

فالخير والسعادة والفلاح فى معرفة حدود الله ، والوقوف عندها والمحافظة عليها . كما أن أصل كل الشر وأسباب كل العقوبات الجهل بحدود الله ، وترك المحافظة عليها ، والله أعلم

القاعدة السادسة والعشرون

الأصل : أن الآيات التى فيها قيود لاتثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود ، إلا فى آيات يسيرة

وهذه قاعدة لطيفة . فان الله متى رتب فى كتابه حكما على شىء ، وقيده بقيد ، أو شرط لذلك شرطاً ، تعلق الحكم به على ذلك الوصف ، الذى وصفه الله تعالى

وهذا فى القرآن لاحصر له . وإنما المقصود ذكر المستثنى من هذا الأصل الذى يقول كثير من المفسرين ، إذا تكلموا عليها : هذا قيد غير مراد . ففى هذه العبارة نظر

فان كل لفظة فى كتاب الله فان الله أرادها لما فيها من فائدة . قد تظهر للمتكلم وقد تخفى . وإنما مرادهم بقولهم « غير مراد » ثبوت الحكم بها

فاعلم أن الله تعالى يذكر الأحكام الشرعية من أصول

وفروع و يذكر أعلى حالة لها ليبرزها لعباده ، ليظهر لهم حسنها ، إن كانت مأموراً بها ، أو قبحها إن كانت منهياً عنها

وعند تأمل هـذه الآيات التى بهذا الصدد يظهر لك هذا منها عيانا

فمنها قوله تعالى (ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به) ومن المعلوم أن من دعا مع الله إلها آخر . فانه كافر ، وأنه ليس له برهان مطلقاً . و إنما قيدها الله بهذا القيد بيانا لشناعة الشرك والمشرك وأن الشرك ليس له دليل شرعى ، ولا عقلى قطعاً . والمشرك ليس بيده مايسوغ له شيئاً من ذلك

ففائدة هذا القيد : التشنيع البليغ على المشركين بما تملكهم لغبائهم و بلادتهم التقليدية من المعاندة ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية ، وأنه ليس بأيديهم الا أغراض بهيمية ومقاصد سيئة وتقليد أعمى كالأنعام، وأنهم لوالتفتوا أدنى التفات لعرفوا أن ماهم عليه لايستسيغه من له أدنى فهم وعقل

ومنها قوله تعالى (وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن) مع أن كونها فى حجره أو غير حجره ليس شرطاً لتحريمها . فانها تحرم مطلقا . ولكن ذكر الله هـذا القيد تشنيعاً لهذه الحالة، وأنه من أقبح القبيح تزوج الربيبة التى

هى فى حجر الانسان بمنزلة بنته . فذكر الله المسألة متجلية بثياب قبحها ، لينفّر عنها ذوى الألباب ،مع أن التحريم لم يعلق بمثل هذه الحالة . فالانثى إما أن تكون مباحة مطلقاً ، أو محرمة مطلقاً سواء كانت عند الانسان أم لا . كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات

ومنها : قوله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم خشيـة إملاق) و (من إملاق) مع أن من المعلوم النهى عن قتل الاولاد على أى حال . فالفائدة فى ذكر هذه الحالة : أنها حالة جامعـة للشر كله : كونه قتل بغير حق ، وقتل من جبلت النفوس على شدة الشفقة عليه شفقة لا نظـير لها . وكون ذلك صـادراً عن التسخط لقدر الله ، و إسـاءة الظن بالله . فأولئك الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر والاملاق إنما يقتلونهم تبرما وتسخطاً بقدر الله فهم قد تبرموا بالفقر هذا التبرم ،وأساءوا ظنونهم بربهم حيث ظنوا أنهم إن أبقوهم زاد فقرهم ، واشتدت فاقتهم ،فصار الأمر بالعكس

وأيضا فانه إذا كان منهيا عن قتلهم فى هـذه الحال التى دفعهم إليها خشية الفقر وحدوثه . ففى حال سعة الرزق من باب أولى وأحرى .

وأيضا ففى هذا : بيان للحالة الموجودة غالبا عندهم

فالتعرض لذكر الأسباب الموجودة الحادثة يكون أجلى وأوضح للسائل .

وأما قوله تعالى فى الرجعة (و بعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا) فمن العلماء من قال : إنه من هذا النوع . وأنه يستحق ردها سواء أراد المراجع الاصلاح أولم يرده. فيكون ذكر هذا القيد حثا على لزوم ما أمر الله به ، من قصد الاصلاح وتحريم إمساكها وردها إلى زوجيته على وجه المضارة . و إن كان يملك ردها ، كقوله تعالى : (فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف)

ومن العلماء من جعل هذا القيد على الأصل العام ،وأن الزوج لا يملك رجعة زوجته فى عدتها إلا إذا قصد الاصلاح . فأما إذا قصد ضد ذلك فلا حق له فى رجعتها . وهذا هو الصواب .

ومنها قوله تعالى (و إن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة) مع أن الرهن يصح حضرا وسفرا . ففائدة هذا القيد : أن الله ذكر أعلى الحالات ، وأشد الحاجات للرهن ، وهى هذه الحالة فى السفر ، والكاتب مفقود ، والرهن مقبوض ، فأخرج ما يحتاج الانسان للرهن فى هذه الحالة التى تعذرت معها التوثيقات

إلا بالرهن المقبوض ، وكما قاله الناس فى قيد السفر فكذلك على الصحيح فى قيده بالقبض . وأن قبضه ليس شرطا لصحته، و إنما ذلك للاحتياط ، وزيادة الاستيثاق . وكذلك فقد الكاتب .

ومنها قوله (فاستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) مع أن الحق يثبت بالرجل فقط والمرأتين فقط ، مع وجود الرجلين، لكن ذكر الله أكمل حالة يحصل بها الحفظ للحقوق ، بدليل أن النبى ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين ، والآية ليس فيها ذلك لهذه الحكمة ، وهو أن الآية أرشد الله فيها عباده إلى أعلى حالة يحفظون بها حقوقهم ، لتمام راحتهم .

وأما قوله تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى) فانها من أصل هذه القاعدة ، و يظن بعض الناس أنها من هذا النوع . وأنه يجب التذكير ، نفعت الذكرى أو لم تنفع . لكن قصر الآية على هذا غلط ، فان الآية تعطى أيضا لمن تدبر أن الذكرى إذا كان يحصل بها الخير كله أو بعضه أو يزول بها الشر كله أو بعضه وجب توجيهها. فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه . فانه منهى عنه فى هذه الحال ، كما نهى الله عن سب آلهة المشركين إذا كان وسيلة

لسب الله . وكما ينهى عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتب عليه شر أكبر أو فوات خير أكثر من الخير الذى يؤمر به . وكذلك النهى عن المنكر إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه شراً . فالتذكير فى هذه الحال غير مأمور به ، بل منهى عنه. وكل هذا من تفصيل قوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة) فعلم أن هذا قيد مراد ، يرتبط الحكم به ثبوتا وانتفاء والله أعلم .

ومنها قوله تعالى (ويقتلون النبيين بغير الحق) مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير الحق. فهذا نظير ما ذكره فى الشرك ، وأن هذا إنما هو لتشنيع هذه الحالة التى لا شبهة فيها لصاحبها ، بل صاحبها أعظم الناس جرما . وأشدهم إساءة .

وأما قوله تعالى (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) فليست من هذا النوع وإنما هى من النوع الأول الذى هو الأصل ، و «الحق» الذى قيدها الله به جاء مفسرا فى قوله ﷺ «النفس بالنفس، والزانى المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

ومنها قوله تعالى (وإن كنتم مرضى أو على سفر أوجاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا) مع أن فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر . فانه إذا فقد جاز التيمم

حضرا وسفرا، لكن ذكر السفر لبيان الحالة التي يغلب أن يفقد فيها الماء . وأما الحضر فانه يندر فيه عدم الماء جدا .

وظن بعض العلماء أن السفر وحده مبيح للتيمم . وإن كان الماء موجوداً، وهو فى غاية الضعف. وماثبت من هدى الرسول وأصحابه والأئمة مخالف لهذا القول .

ومن ذلك قوله تعالى (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) مع أن الخوف ليس شرطا لصحة القصر ومشروعيته بالاتفاق . ولما سئل النبى ﷺ عن هذا أجاب : « صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته » و يعنى بصدقة الله : إحسانه فى كل زمان ومكان لا ، يتقيد بخوف ولا غيره .

ومن العلماء من قال : إن هذا القيد من القسم الأول و أن القصر التام - وهو قصر العدد وقصر الأركان والهيئات - شرطه اجتماع السفر والخوف كما فى الآية فان وجد الخوف وحده لم يقصر عدد الصلاة و إنما تقصر هيئاتها وصفاتها. و إن وجد السفر وحده لم تقصر هيأتها وشروطها و إنما يقصر عددها . ولا ينافى هذا كلام النبي ﷺ فانهم إنما سألوه عن قصر العدد فقط، فأجابهم بأن الرخصة فيه عامة فى كل الأحوال .

وهذا تقرير مليح موافق لظاهر الآية غير مخالف لحديث الرسول فيتعين الأخذ به .

القاعدة السابعة والعشرون

المحترزات فى القرآن تقع فى كل المواضع عند الحاجة إليها .

وهذه القاعدة جليلة النفع ، عظيمة الوقع

وذلك أنه ما من موضع يسوق الله فيه حكما من الأحكام أو خبرا من الأخبار فيتشوف الذهن فيه إلى شىء آخر ، إلا وجدت الله قد قرن به ذلك الأمر الذى تشوفت إليه الأذهان ،فيبينه أحسن بيان . وهذا أعلى أنواع التعليم ، فانه لا يبقى إشكالا إلا أزاله ، ولا احتمالا إلا أوضحه . وهذا يدل على عظيم فضل الله وبالغ حكمته . وهو فى القرآن كثير جدا .

ولنذكر بعض أمثلة توضح هذه القاعدة .

فمن ذلك قوله تعالى فى سورة النمل : (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها) لما كان تخصيص مكة بالذكر بما يوقع فى بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها أزال هذا الوهم بقوله : (وله كل شىء) .

ومنها قوله تعالى فى سورة هود (١١ : ١٠٨ فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء) لما كان قد يقع فى الذهن أنهم على بعض حجة و برهان فى شركهم أبان بقوله (مايعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل) : أن ضلالهم إنما هو عن تقليد أعمى لآبائهم وجهل مطبق. ثم لما كان قد يتوهم أنهم فى طمأنينة من قولهم وعلى بعض يقين من شركهم وكفرهم بدد ذلك بقوله : (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص — إلى قوله — وإنهم لفى شك منه مريب) فبين بهذا أنهم ليسوا على شىء من اليقين فى دينهم ولا اطمئنان إلى جزاءهم فى الآخرة بما يحبون . فان من المحال أن يؤتي العزيز الحكيم الجزاء فى الآخرة بما يهوى الضالون. ولما قال فى سورة النساء : (لايستوى القاعدون من المؤمنين) ربما يظن الظان أنهم لايستوون مع القاعدين ولو كان القاعدون معذورين . أزال هذا الوهم بقوله : (غير أولى الضرر) .

وكذلك لما قال : (٥٧ : ١٠ لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) ربما توهم أحد أن المفضولين ليس لهم عند الله مقام ولا مرتبة على أى حال، فأزال هذا الوهم بقوله : (وكلا وعد الله الحسنى) ثم لما كان ربما يتوهم أن هذا الأجر يستحق بظاهر هذا العمل

المذكور ،ولو خلا من الأخلاص، أزال هذا الوهم بقوله : (والله بما تعملون خبير) .

ومنها : قوله فى سورة النمل (٢٧ : ٤٨ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض) ربما وقع فى الذهن أنهم قد يصلحون ، فأزال هذا الوهم بقوله : (ولا يصلحون) أى لاخير فيهم أصلا مع شرهم العظيم .

ومنها: أنه قال فى عدة مواضع (ولا تُسمع الصم الدعاء) فربما توهم أحد أنهم وإن لم يسمعوا . فلعلهم يفهمون الاشارة . فأزال هذا الاحتمال بقوله : (إذا ولوا مدبرين) فهذه الحالة لاتقبل سماعا ولا رؤية لتحصل الاشارة . وهذا نهاية الاعراض .

ومنها : قوله (ولكن الله يهدى من يشاء) ربما توهم أحد أن هدايته تأتى جزافا من غير سبب. فأزال هذا بقوله (وهو أعلم بالمهتدين) أى بمن يصلح للهداية لزكائه وخيره، وإقباله على الهداية وطلبها بالتفكر فى آيات الله . والشوق إلى فهم مايوحى به إلى رسله فأبان أن هدايته تابعة لحكمته التى هى وضع الأشياء مواضعها . ومن كان فقيها غير مقلد أى من هذا شيئا كثيرا .

القاعدة الثامنة والعشرون

فى ذكر الأوصاف الجامعة التى وصف الله بها المؤمن .

لما كان الايمان أصل كل خير وفلاح فى الدنيا والآخرة ، وبفقده يفقد كل خير دينى ودنيوى وأخروى . أكثر الله من ذكره فى القرآن جدا : أمراً به ، ونهياً عن ضده ، وترغيباً فيه ، وبيانا لأوصاف أهله وما لهم من الجزاء الدنيوى والأخروى

فاذا كان المقام مقام خطاب للمؤمنين بالأمر والنهى أو مقام إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الايمان ، فانها تتناول كل مؤمن ، سواء كان متما لواجبات الايمان وأحكامه ، أو ناقصا شيئا منها .

وأما إن كان المقام مقام مدح وثناء ، وبيان الجزاء الكامل للمؤمن : فان المراد بذلك المؤمن حقا والجامع لكل معانى الايمان .

وهذا هو المراد بيانه هنا . فنقول :

وصف الله المؤمن فى كتابه بتصديقه وإذعانه . لجميع عقائد الدين وبحب مايحبه الله ويرضاه ، وبالعمل به ، وبالتباعد والحذر من كل ما يبغضه الله ، وبادامة الانابة والرجوع إلى الله

فى كل حال . وكان لايمانه أطيب الثمرات فى الاعمال والاخلاق

فوصف المؤمنين بالايمان بالأصول الجامعة . وهو الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره . وأنهم يؤمنون بكل ماجاء به الرسل كلهم ، ويؤمنون بالغيب ، ووصفهم بالسمع والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً . ووصفهم بأنهم (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا) .

ووعدهم بأنعم وأطيب البشرى (بشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) .

ووصفهم بأن جلودهم تقشعر وعيونهم تفيض من الدمع ، وقلوبهم تلين وتطمئن لآيات الله وذكره ، وبأنهم يخشون ربهم بالغيب والشهادة . وأنهم يؤتون ما آتوا قلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجون .

ووصفهم بالخشوع فى أحوالهم عموما . وفى الصلاة خصوصا وأنهم عن اللغو معرضون . وللزكاة فاعلون ، ولفروجهم حافظون إلا

على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم . وأنهم بشهاداتهم قائمون ولأماناتهم وعهدهم راعون .

ووصفهم بأنهم يمشون على الأرض هونا — وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . وأنهم يبيتون لربهم سجدا وقياما ، وأنهم يقولون بدعائهم وأعمالهم وأخلاقهم : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم . وأنهم مقتصدون وسط فى كل شئونهم وإذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . وأنهم لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون . وأنهم لايشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما ، وأنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، بل خروا سجداً وبكيا . ويخرون للأذقان يبكون وتزيدهم رؤية آيات الله وسماعها خشوعا وإخباتا . وأنهم يطلبون السمو والعلو دائما فلا يرضون إلا أن يكونوا أئمة فى الهدى والايمان والتقوى ومكارم الأخلاق ، وأنهم يقدرون الواجب عليهم ومسئوليتهم أمام الله عما استرعاهم من الأولاد والزوجات وغيرهم ، فيحسنون القيام عليهم فى تأديبهم وتربيتهم ليكونوا قرة عين لهم .

ووصفهم باليقين الكامل الذى لاريب فيه ، وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .

ووصفهم بالأخلاص لربهم فى كل ما يأتون و يذرون .

ووصفهم بمحبة المؤمنين والدعاء للسابقين واللاحقين منهم ، وأنهم مجتهدون فى إزالة الغل من قلوبهم على المؤمنين ، و بأنهم يتولون الله ورسوله وعباده المؤمنين ، و يتبرؤون من موالاة جميع أعداء الدين ، و بأنهم يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ، و يطيعون الله ورسوله فى كل أحوالهم

فجمع الله لهم بين العقائد الحقة واليقين الكامل ، والانابة التامة التى آثارها الانقياد لفعل المأمورات ، وترك المنهيات ، والوقوف على الحدود الشرعيات .

فهذه الأوصاف الجليلة هى وصف المؤمن المطلق الذى سلم من أسباب العقاب ، واستحق جميل الثواب ، ونال كل خير رتب على الايمان .

فان الله رتب على الايمان فى كتابه من الفوائد والثمرات ما لايقل عن مائة فائدة . كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

رتب على الايمان نيل رضاه الذى هو أكبر من كل شىء . ورتب عليه دخول الجنة والنجاة من النار ، والسلامة من عذاب القبر ومن أهوال القيامة ، والبشرى الكاملة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، والثبات فى الدنيا على الايمان والطاعات وعند الموت

وفى القبر ورتب عليه الحياة الطيبة فى الدنيا والرزق الكريم والحسنة وتيسيره لليسرى وتجنيبه للعسرى، وطمأنينة القلوب ، وراحة النفوس والقناعة التامة ، وصلاح الأحوال ، وصلاح الذرية والصبر عند المحن والمصائب . وحمل الله عنهم الأثقال. ومدافعة الله عنهم جميع الشرور ، والنصر على الأعداء ورفع المؤاخذة عند النسيان والخطأ ، وأن الله قد وضع عنهم الآصار والأغلال التى تكبل بها المخلدون الغافلون ، الاشقياء المعذبون فى الدنيا والآخرة بكفرهم وشركهم .

فالايمان أكبر وسيلة للقرب من الله والقرب من رحمته ، ونيل ثوابه ، وأكبر وسيلة لمغفرة الذنوب ، و إزالة الشدائد وتخفيفها .

القاعدة التاسعة والعشرون

فى الفوائد التى يجتنيها العبد من معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن

وهذه القاعدة تكادتكون هى المقصود الأعظم فى علم التفسير وذلك أن القرآن مشتمل على علوم متنوعة ، وأصناف جليلة من العلوم . فعلى العاقل الناصح لنفسه أن يتدبر القرآن و يعرف كل نوع منها . و يعمل على هذا و يتتبع الآيات الواردة فيه .

فيحصل المراد منها : علما وتصديقا ، وحالا ، وعملا

فأجل علوم القرآن على الاطلاق : علم التوحيد ، وما لله من صفات الكمال . فاذا مرت عليه الآيات فى توحيد الله وأسمائه وصفاته أقبل عليها . فاذا فهمها وفهم المراد بها أثبتها لله على وجه لا يماثله فيه أحد . وعرف أنه ليس له مثيل فى ذاته ولا فى صفاته . وامتلأ قلبه من معرفة ربه وحبه بحسب العلم بكمال الله وعظمته . فان القلوب مجبولة على محبة الكمال . فكيف بمن له الكمال المطلق ؟ ومنه جميع النعم الجزيلة . ويعرف أن أصل الأصول هو الايمان بالله وأن هذا الأصل يقوى ويكمل بحسب معرفة العبد لربه ، وفهمه لمعاني صفاته بما يشهد من آثارها عليه وعلى الناس ؛ فيقدر الله حق قدره ويشكره أعظم الشكر

وأيضا يعرف أنه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله . فان هو أصل العلم وأصل التعبد

ومن علوم القرآن : صفات الرسل وأحوالهم ، وما جرى لهم وعليهم ، مع من وافقهم ومن خالفهم . وما كانوا عليه من الأوصاف الراقية والأخلاق الكريمة . فاذا فهم هذه الآيات ازدادت معرفته ومحبته لهم ، خصوصا إمامهم وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم . فيقتدى بأخلاقهم وأعمالهم جهد طاقته ويفهم أن

الايمان بهم تمامه وكماله: بمعرفته التامة بأحوالهم ، ومحبتهم، واتباعهم وفى القرآن من نعوتهم الشيء الكثير الذى يحصل به تمام الهدى

و يستفيد أيضا الاقتداء بشرائعهم الحكيمة و إرشاداتهم للخلق وحسن خطابهم ، ولطف جوابهم وتمام صبرهم . فليس القصد من قصصهم أن تكون سمرا . و إنما القصد أن تكون عبرا

ومن علوم القرآن : علم أهل السعادة والخير ، وأهل الشقاوة والشر .والفرقان بين هؤلاء وهؤلاء. و بيان الصفات والطرق التى وصل بها هؤلاء إلى دار النعيم، ووصل بها أولئك إلى دار الجحيم وفى معرفته لذلك فوائد الترغيب فى الاقتداء بالاخيار .والترهيب من أحوال الاشرار. فأحب الاخيار ووالاهم وأبغض الفجار وعاداهم فان ذلك من أوثق عرى الايمان . وكلما كان أعرف لأحوالهم تمكن من هذه المقاصد

ومن علوم القرآن : علم الجزاء فى الدنيا والبرزخ والآخرة . على أعمال الخير وأعمال الشر

وفى ذلك مقاصد جليلة : الايمان بكمال عدل الله وسعة فضله والايمان باليوم الآخر . فان تمام الايمان بذلك يتوقف على معرفة ما يكون فيه ، والرغبة فى الأعمال التى رتب الله عليها الجزاء الجميل ، والرهبة من ضدها

ومن علوم القرآن : الأمر والنهى

وفى ذلك مقاصد جليلة : معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله فان العباد محتاجون إلى معرفة ما أمروا به وما نهوا عنه والعمل بذلك. والعلم سابق للعمل. وطريق ذلك : إذا مر على القارىء نص فيه أمر بشىء عرفه ، وفهم مايدخل فيه ومالا يدخل فيه، وحاسب نفسه : هل هو قائم بذلك كله أو بعضه أو تاركه ؟ فان كان قائما به فليحمد الله، ويسأله الثبات والزيادة من الخير. وإن كان مقصراً فيه فليعلم أنه مطالب به . وملزم به . فليستعن الله على فعله . وليجاهد نفسه على ذلك .

وكذلك فى النهى ليعرف مايراد منه ، وما يدخل فى ذلك. ثم لينظر إلى نفسه فان كان قد ترك ذلك فليحمد الله على توفيقه، ويسأله أن يثبته على ترك المناهى كما يسأله الثبات على فعل الطاعات . وليجعل الداعى له على الترك امتثال طاعة الله ، ليكون تركه عبادة ، كما كان فعله للطاعة عبادة ، وإن كان غير تارك له . فليبادر بالتوبة إلى الله توبة نصوحا جازمة . لا تمنعه منها الشهوات الدنية التى تدعو إليها النفس الأمارة بالسوء .

فمن كان عند هذه المطالب وغيرها عاملا على هذه الطريقة فانه ثابت على الصراط المستقيم من الأسترشاد بكتاب الله .

القاعدة الثلاثون

أركان الايمان بالأسماء الحسنى ثلاثة : إيماننا بالاسم ، و بما دل عليه من المعنى ، و بما تعلق به من الآثار .

وهذه القاعدة العظيمة : خاصة باسماء الرب سبحانه وتعالى

و فى القرآن من الأسماء الحسنى ماينيف عن ثمانين اسما ـ كررت فى آيات متعددة ، بحسب ماينا سب المقام ، كما تقدم بعض الاشارة اليها .

وهذه القاعدة تنفعك فى كل اسم من اسمائه الحسنى المتعلقة بالخلق والأمر ، والثواب والعقاب .

فعليك أن تؤمن بأنه عليم ، وذو علم عظيم ، محيط بكل شيء ، قدير ، وذو قدرة وقوة عظيمة . و يقدر على كل شيء ، ورحيم وذو رحمة عظيمة ، ورحمته وسعت كل شيء والثلاثة متلازمة .

فالاسم دل على الوصف . وذلك دل على المتعلق . فمن نفى واحداً من هذه الثلاثة فلن تتم معرفته بالله ولن يتم إيمانه باسماء الرب وصفاته ، الذى هو أصل التوحيد

ولنكتف بهذا الأنموذج . ليعرف أن الاسماء كلها على هذا

القاعدة الحادية والثلاثون

ربوبية الله فى القرآن على نوعين . عامة ، وخاصة

كثر فى القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده ، ومتعلقاتها ، ولوازمها . وهى على نوعين :

ربوبية عامة ، يدخل فيها جميع المخلوقات : برها ، وفاجرها بل مكلفوها وغير المكلفين ، حتى الجمادات . وهى أنه تعالى المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها ، وإعطائها ما تحتاجه إليه فى بقائها . وحصول منافعها ومقاصدها والمقاصد منها . فهذه التربية لايخرج عنها أحد

والنوع الثانى :فى تربيته لاصفيائه وأوليائه . فيربيهم بالوحى ينزل لهم بغيث العلم ويهديهم إلى الايمان ،ويوفقهم لتكميله، ويكملهم بالأخلاق الجميلة ، ويدفع عنهم الأخلاق الرذيلة ، ويسيرهم لليسرى ويجنبهم العسرى . وحقيقتها : التوفيق لكل خير . والحفظ من كل شر ، وإنالة المحبوبات العاجلة والآجلة ، وصرف المكروهات العاجلة والآجلة

فحيث أطلقت ربوبيته تعالى . فان المراد بها المعنى الأول مثل قوله (رب العالمين) (وهو رب كل شىء) ونحو ذلك

وحيث قيدت بما يحبه و يرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم . فان المراد بها النوع الثانى . وهو متضمن للمعنى الأول وزيادة ولهذا تجد أدعية الأنبياء وأتباعهم فى القرآن باسم الرب غالبا فان مطالبهم كلها داخلة تحت ربو بيته الخاصة .

فلاحظة هذا المعنى نافعة أعظم النفع للعبد .

ونظير هذا المعنى الجليل : أن الله أخبر فى عدة آيات أن الخلق كلهم عباده وعبيده (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) فكلهم مماليكه . وليس لهم من الملك والأمر شىء، لا فى أنفسهم ولا فى غيرهم. ويخبر فى بعض الآيات أن عباده بعض خلقه كقوله (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) ثم ذكر صفاتهم الجليلة كقوله (أليس الله بكاف عباده) وفى قراءة (عبده) وقوله (سبحان الذى أسرى بعبده) وقوله (و إن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) فالمراد بهذا النوع من قاموا بحقوق عبوديتهم له بصفة ربو بيته، وأخلصوا له الدين على اختلاف طبقاتهم

فالعبودية الأولى : يدخل فيها البر والفاجر

والعبودية الثانية : صفة الأبرار . ولكن الفرق: أن الربو بية وصف الرب وفعله . والعبودية وصف العبيد وفعلهم .

القاعدة الثانية والثلاثون

إذا أمر الله بشيء كان ناهيا عن ضده ، و إذا نهى عن شيء كان آمراً بضده ، و إذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص . كان ذلك إثباتا للكمال

وذلك : أنه لا يمكن امتثال الأمر على وجه الكمال إلا بترك ضده ، فحيث أمر بالتوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج و بر الوالدين، وصلة الأرحام ، والعدل والإحسان، كان ناهيا عن الشرك ، وعن ترك الصلاة ، وترك الزكاة ، وترك الصوم، وترك الحج ، وعن العقوق ، والقطيعة ، والظلم والإساءة ، وحيث نهى عن الشرك والصلاة ـ إلى آخر المذكورات . كان آمراً بالتوحيد ، وفعل الصلاة وغيرها

وحيث أمر بالصبر والشكر ، و إقبال العبد إلى الله إنابة ومحبة ، وخوفاً ورجاء ، كان ناهيا عن الجزع والسخط ، وكفران النعم ، و إعراض القلب عن الله وهلعه وجزعه وتعلقه بغير الله خوفا ورجاء ، وحيث نهى عن الجزع ، وكفران النعم ، وغفلة القلب . كان آمراً بالصبر وغيره من المذكورات

وهذا ضرب مثل . و إلا فكل الأوامر والنواهي على هذا النمط وكذلك المدح لا يكون إلا بإثبات الكمالات ، فحيث أثنى

على نفسه ، وذكر تنزهه عن النقائص والعيوب ، كالنوم والسنة واللغوب ، والموت ، وخفاء شيء فى العالم ، من الاعيان والصفات وغيرها ، والظلم والعبث واللعب وخلق شيء باطلا ، وأن يكون عطاؤه أو جزاؤه جزافا بلا حكمة . فلتضمن ذلك الثناء عليه بكمال حياته . وكمال قيوميته ، وقدرته ، وسعة علمه ، وكمال عدله وحكمته ، لأن العدم المحض لا كمال فيه ، حتى ينفى تكميلا للكمال

وكذلك إذا نفى عن كتابه الريب والاختلاف والشك . والإخبار بخلاف الواقع . كان ذلك لكمال دلالته على اليقين فى جميع المطالب ، واشتماله على الحق فى كل الاحكام ، والصدق الخالص ، وانتظامه لكل ما يهدى إلى الرشد و إلى الصرط المستقيم

وكذلك إذا نفى عن رسوله الكذب ، والتقول على الله ، واتباع الهوى والغى والضلال والجنون والسحر ، والشعر ، ونحوها . كان ذلك لأجل اثبات كمال صدقه . وأنه لاينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . وكمال عقله واستحالة كل ما يقدح فى كمال نبوته ورسالته

فتفطن لهذه القاعدة فى كل ما يمر عليك من الآيات القرآنية فى هذه الأمور وغيرها . تنل خيراً كثيرا . والله أعلم

القاعدة الثالثة والثلاثون

المرض فى القرآن ـ مرض القلوب ـ نوعان : مرض شبهات وشكوك ومرض . شهوات وفسوق .

والطريق إلى تمييز هذا من هذا ، مع ورودها فى القرآن ، يدرك من السياق .

فان كان هذا السياق فى ذم المنافقين والمخالفين فى شىء من أمور الدين. كان هذا مرض الشكوك والشبهات ، و إن كان السياق فى ذكر المعاصى والميل إليها كان مرض الشهوات .

ووجه انحصار المرض فى هذين النوعين : أن مرض القلب خلاف صحته . وصحة القلب الكاملة بشيئين : كمال علمه ومعرفته و يقينه ، وكمال إرادته وحبه لما يحبه الله و يرضاه .

فالقلب الصحيح : هو الذى عرف الحق واتبعه ، وعرف الباطل واجتنبه ، فان مايزعمه علما إنما هو شكوك وعنده شبهات تعارض ما أخبر الله به فى أصول الدين وفروعه . كان علمه منحرفا . وكان مرض قلبه على حسب ذلك قوة وضعفا . و إن كانت إرادته ومحبته مائلة لشىء من معاصى الله . كان ذلك انحرافا فى إرادته ومرضا وهما متلازمان . لاينفك أحدهما عن الآخر ، فلا يغلب على العبد

الشهوات إلا بفساد علمه بالله وعدله وقضائه وحكمته وشرعه وجزائه. ولا يغلب عليه الشهوات إلا بفساد نفسه وغلبة شهوات الدنيا ورياستها وحظوظها على ما عند الله والدار الآخرة. و إنما قد يكون أحدهما أبرز من الآخر

فمن النوع الأول : قوله تعالى عن المنافقين فى سورة البقرة (فى قلوبهم مرض) وهى التقاليد والشكوك والشبهات المعارضة لرسالة محمد ﷺ (فزادهم الله مرضا) عقوبة على ذلك المرض الناتج عن وأسباب متعددة . كلها منهم . وهم فيها غير معذورين .

ونظير هذا قوله تعالى فى سورة براءة (وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) .

وكذلك قوله تعالى فى سورة الحج (ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) فان مريض القلب من الشكوك وضعف العلم : أقل شىء يريبه ، ويؤثر فيه ، ويفتنه .

ومن الثانى: قوله تعالى فى سورة الأحزاب (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى مرض شهوة ، و إرادة للفجور ، فالمريض بذلك: أقل شىء من أسباب الأفتنان يوقعه فى الفتنة ، طمعا أو فعلا . فكل من أراد شيئا من معاصى الله . فقلبه مريض مرض شهوة. ولو كان صحيحا لاتصف بصفات الأذكياء الأبرياء الأتقياء

الموصوفين بقوله فى سورة الحجرات (ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه فى قلوبكم .وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة) .

فمن كان قلبه على هذا الوصف الذى ذكره الله ، فليحمده على هذه النعمة التى لايقاومها شيء من النعم . وليسأل الله الثبات على ذلك . ويأخذ فى أسباب الزيادة من فضل الله ورحمته.

القاعدة الرابعة و الثلاثون

دل القرآن فى عدة آيات أن من ترك ماينفعه مع الامكان ابتلى بالاشتغال بما يضره ، وحرم الأمر الأول .

وذلك أنه ورد فى عدة آيات : أن المشركين لما زهدوا فى عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان ، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل ، بزعمهم : أنهم بشر ، ابتلوا بالانقياد ، لكل مارج العقل والدين . ولما عرض عليهم الايمان أول مرة فعرفوه ، ثم تركوه . قلب الله قلوبهم . وطبع عليها . فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم . ولما بين لهم الصراط المستقيم وزاغوا عنه اختياراً ورضى بطريق الغى وكرها لطريق الهدى والرشد ، عوقبوا بأن أزاغ

الله قلوبهم ، وجعلهم حائرين فى طريقهم خاسرين فى كل سعيهم.

ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بالعذاب المهين .

ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم فى الدنيا والآخرة .

لكل مبطل

ولما منعوا مساجدالله أن يذكر فيها اسمه وسعوا فى خرابها لم يكن لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه ،و بما كانوا يكذبون)

والآيات فى هذا المعنى كثيرة جداً ، يخبر الله فيها أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدى الطريق المستقيم . ثم إذا تركها بعد أن عرفها ، ونكص عنها بعد أن سلكها : عوقب بابعاده فى طريق ضلاله الذى ارتضاه لنفسه وترك به طريق الهدى. فالاهتداء غير ممكن فى حقه مادام سادرا فى طريق غوايته ممعنا فى سبيل ضلالته . جزاء على فعله ، كقوله فى اليهود فى سورة البقرة (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون ،واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك

سليمان) فانهم لما تركوا اتباع كتب الله المنزلة من عنده لهداية العباد ، وإصلاح كل شئونهم ، واسعادهم . وهى خير مايشتغل به العاقل الناصح لنفسه وأنفعها وأصدقها . ابتلوا باتباع أرذلها وأخسئها ، وأضرها للعقول ، وأفتكها فى إفساد المجتمع . ولما ترك المحاربون لله ورسوله انفاق أموالهم فى طاعة الرحمن . ابتلاهم بانفاقها فى طاعة الشيطان .

القاعدة الخامسة والثلاثون

فى القرآن عدة آيات فيها الحث على أعلى المصلحتين وتقديم أهون المفسدتين ، ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته وهذه قاعدة جليلة . نبه الله عليها فى آيات كثيرة .

فمن الأول : المفاضلة بين الأعمال ، وتقديم الأعلى منها . كقوله فى سورة الحديد (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) وقوله فى سورة التوبة (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ـ الآية) وكقوله فى سورة النساء (لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله ـ الآية) .

ومن الثانى : قوله تعالى فى سورة البقرة (يسألونك عن

الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام ، و إخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) بين تعالى أن ما نقمه الكفار على المسلمين : من قتال فى الشهر الحرام ، و إن كان مفسدة فما أنتم عليه من الصد عن سبيل الله والكفر به و بسبيل هداه و بالمسجد الحرام وصدكم عنه ، و اخراج أهله منه: اكبر عند الله. وفتنتكم المؤمنين بشديد الاذى محاولين إرجاعهم إلى الشرك أكبر من القتال فى الشهر الحرام .

وقوله فى سورة الفتح (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم ـ الآيات) فكف الله المؤمنين عن القتال فى المسجد الحرام فى صلح الحديبية مع وجود المقتضى من الكفار اتقاء للمفسدة المترتبة على ذلك : من اصابة المؤمنين والمؤمنات المستضعفين الذين حبسهم المشركون بمكة عن الهجرة بأنواع من الاذى أو القتل ـ ما يكون سبباً فى لحوق المعرة بجيش المؤمنين

وكذلك جميع ما جرى فى صلح الحديبية من هذا الباب : من التزام تلك الشروط التى ظاهرها ضرر على المسلمين . ولكن تبين لهم بعد أنها عين المصلحة لهم والفتح المبين.

ومن هذا : أمره بكف الأيدى عن القتال قبل أن يهاجر الرسول إلى المدينة ، لأن الأمر بالقتال فى ذلك الوقت أعظم ضرراً من الصبر والاخلاد إلى السكينة ، مع متابعة تبليغ الرسالة و إقامة الحجة والجهاد الكبير بالقرآن

ولعل من هذا مفهوم قوله فى سورة الأعلى (فذكّر إن نفعت الذكرى) يعنى فان ضرت فترك التذكير الموجب للضرر الكثير هو المتعين . والآيات فى هذا النوع كثيرة جداً

ومن الثالث : قوله تعالى فى سورة البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر ؟ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، و إثمهما أكبر من نفعهما)

هذا كالتعليل العام أن كل ماكانت مضرته و إثمه أكبر من نفعه . فان رحمة الله وحكمته لابد أن تقتضى المنع منه وتحريمه على عباده .

وهذا الأصل العظيم كما أنه ثابت شرعا فانه هو المعقول بين الناس المفطورون على استحسانه ، والعمل به فى الأمور الدينية والدنيوية . والله أعلم .

القاعدة السادسة والثلاثون

طريقة القرآن : إباحة الاقتصاص من المعتدى ومقابلة عدوانه بمثله ، والنهى عن ظلمه ، والندب إلى العفو عنه والاحسان وهذا فى آيات كثيرة . كقوله فى سورة النحل (و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله فى سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله إنه لايحب الظالمين) فذكر المراتب الثلاث

ولما كان القتال فى المسجد الحرام محرما. قال تعالى فى سورة البقرة (فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص) وهو كل ماحرم الله وأمر باحترامه . فمن انتهكه فقد أباح الله الاقتصاص منه ، بقدر ما اعتدى به لا أكثر . وقوله بعد ذلك (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم، واتقوا الله) وقوله فى سورة البقرة (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالأنثى ـ الآية) وقوله فى سورة المائدة (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ـ الآية) وقوله فى سورة الاسراء

(ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ،فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً) وقوله فى سورة النساء (لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ـ الآية) والآيات فى هذا المعنى كثيرة . والله أعلم

القاعدة السابعة والثلاثون

اعتبر الله القصد والارادة فى ترتب الأحكام على أعمال العباد. وهذا الأصل العظيم : صرح به النبى ﷺ فى قوله « إنما الأعمال بالنيات »

والمقصود هنا : أنه ورد آيات كثيرة جدا فى هذا الأصل

فمنها ، وهو أعظمها : انه رتب حصول الأجر العظيم على الأعمال بارادة وجه تعالى ، لما ذكر الصدقة والمعروف،والاصلاح بين الناس . قال فى سورة النساء (ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما) وقال فى سورة البقرة (الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله) وفى مقابله قال (رئاء الناس) ووصف الله نبيه وخيار خلقه من الصحابة رضى الله عنهم ومن تبعهم بأنهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا . وقال فى الرجعة فى سورة البقرة (و بعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا)

وقال فى سورة البقرة (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) وقال فى سورة النساء (من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار) وقال فى سورةالبقرة (فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) وفى سورة النساء (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)وفىسورة البقرة (و إن تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح)

وفى دعاء المؤمنين فى سورة البقرة (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) فقال الله« قد فعلت» وقال فىسورة الأحزاب (ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم)

وذكر الله قتل الخطأ ورتب عليه الدية والكفارة . ثم قال فى سورة النساء (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) وقال فى جزاء الصيد فى سورة المائدة (ومن قتله متعمداً فجزاء مثل ماقتل من النعم ـ الآية) وقال فى سورة البقرة (واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن أعمال الأبدان وأقوال اللسان ، صحتها وفسادها ، وترتب أجرها أو وزرها: بحسب ماقام بالقلب من القصد والنية

القاعدة الثامنة والثلاثون

قد دلت آيات كثيرة على جبر المنكسر قلبه ومن تشوفت نفسه لأمر من الأمور إيجابا أو استحبابا

وهذه قاعدة لطيفة ، اعتبرها البارى وأرشد عباده اليها فى عدة آيات

منها : المطلقة . فانها لما كانت فى الغالب منكسرة القلب حزينة على فراق بعلها ، أمر الله بمتعتها على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف . وكذلك من مات زوجها عنها فان من تمام جبر خاطرها : أن تمكث عند أهله سنة كاملة وصية ومتعة مرغب فيها . وكذلك أوجب الله للزوجة على الزوج النفقة والكسوة فى مدة العدة، إن كانت رجيعة ، أو كانت حاملة مطلقة

وقال تعالى فى سورة النساء (و إذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا) و يدخل الواجب المستحب فى مثل قوله فى سورة الأنعام (وآتوا حقه يوم حصاده) وكذلك إخباره عن عقوبة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يتركون شيئاً منها يلتقطه الفقير وتواصوا أن لا يدخلنها اليوم عليهم مسكين

وقال تعالى فى سورة الاسراء (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ـ إلى قوله ـ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل)

وقد ذكر الله جبره لقلوب أنبيائه وأصفيائه أوقات الشدائد وإجابته لأدعيتهم بتفريج الكربات . وأمر عباده بانتظار الفرج عند الأزمات . فهذا أصل قد اعتبره الله ، وأرشد اليه . فينبغى للعبد أن يكون هذا على باله فى أوقات المناسبات .

القاعدة التاسعة والثلاثون

فى طريقة القرآن فى أحوال السياسة الداخلية والخارجية

طريقه القرآن فى هذا : أعلى طريقة ، وأقرب إلى حصول جميع المصالح الكلية . والى دفع المفاسد . ولو لم يكن فى القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالى فى سورة آل عمران (وشاورهم فى الأمر) وإخباره عن المؤمنين فى سورة الشورى (وأمرهم شورى بينهم) فالأمر مفرد ومضاف إلى المؤمنين ، وفى الآية الأولى : قد دخلت عليه « ال » المفيدة للعموم والاستغراق يعنى أن جميع أمور المؤمنين وشئونهم ، واستجلاب مصالحهم ، واستدفاع

مضارهم : معلق بالشورى والتعاون على الاهتداء إلى الأمر الذى يجرون عليه فى حل مشكلاتهم، وتدعيم سلطانهم وتجنيبهم الخلاف المفضى إلى تفكك قواهم وانحلال عراهم .

وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الدينى والدنيوى هو طريق الشورى .

فالمسلمون قد أرشدهم الله أن يهتدوا إلى مصالحهم وكيفية الوصول اليها بإعمال أفكارهم مجتمعة . فاذا تعينت المصلحة فى طريق سلكوه ، وإذا تعينت المضرة فى طريق تركوه ، وإذا اشتبهت مصلحة بمضرة ، نظروا : أيها أقوى . وأحسن عاقبة ؟ ثم نظروا بأى شىء تدرك الأسباب و بأى حال تنال على وجه لايضر سلكوها . و إذا رأوا مصالحهم تتوقف على الاستعداد بالفنون الحديثة والاختراعات الباهرة ، سعوا لذلك بحسب اقتدارهم . ولم يملكهم اليأس والاتكال على غيرهم ، الملقى إلى التهلكة . وإذا عرفوا ـ وقد عرفوا ـ أن السعى لاتفاق الكلمة وتوحيد الامة هو الطريق الأقوم للقوة المعنوية جدوا فى هذا واجتهدوا، و إذا رأوا المصلحة فى المقاومة والمهاجمة أو فى المسالمة والمدافعة بحسب الامكان . سلكوا ما تعينت مصلحته. فيقدمون فى موضع الاقدام ، و يحجمون فى موضع الاحجام

وبالجملة لايدعون مصلحة داخليـة ، ولا خارجية ، دقيقة ولا جليلة إلا تشاورا فيها ، وفى طريق تحصيلها وتنميتها ، ودفع مايضادها وينقصها

فهذا النظام العجيب الذى أرشد اليه القرآن : هو النظام الذى يصلح لكل زمان ومكان . ولكل أمة .

ومن ذلك : قوله فى سورة الأنفال (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فهذه الآية تصرح بوجوب الاستعداد للأعداء بكل ما نستطيعه من قوة عقلية ، ومعنوية ومادية ، مما لايمكن حصره وفى كل وقت ولكل عدو يتعين سلوك ما يلائم ذلك الوقت وينا سبه

ومن ذلك قوله فى سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) ونحوها من الآيات التى أرشد الله فيها الى شدة التحرز من الأعداء ، وأن نكون منهم أبدا على حذر فى وقت السلم ، فضلا عن وقت الحرب . وأن تكون لنا العيون والارصاد عليهم ، لنعلم كل حركاتهم الحربية والعلمية ، لنأخذ السبيل عليهم ونسبقهم حتى لا يكون لهم من ضعفنا وجهلنا فرصة تمكنهم منا ، وأن لا نمكنهم من الاطلاع على أسرارنا الحربية ولا على مواردنا الاقتصادية ، فضلا عن تمكينهم منها فضلا عن أن نكون عالة عليهم فيها . فكل ذلك وغيره داخل تحت قوله (خذوا حذركم)

ومن عجيب ما نبه عليه القرآن من النظام الوحيد : أن الله عاتب المؤمنين بقوله فى سورة آل عمران (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟) فأرشد الله عباده إلى أنه ينبغى أن يكونوا بحالة من الحكمة واستقامة الأمور على طرقها . بحيث لا يزعزعهم عنها فقد رئيس مهما كان عظيما . وما يكون ذلك إلا بأن يستعدوا لكل أمر من أمورهم الدينية والدنيوية بعدة من القادة متساوين أو متقاربين فى قوة القيادة والدربة والحنكة والسياسة الدينية والاقتصادية والحربية ، إذا فقد أحدهم قام مقامه غيره ، وأن تكون الأمة متوحدة فى إرادتها وعزمها ومقاصدها وشئونها . قصدهم جميعا : أن تكون كلمة الله هى العليا وأن تكون أمتهم ذات شوكة يرهبها العدو ، فلا يستطيع أن يغتصبها بعض حقوقها المادية فى أرضها ومنافعها ولا بعض حقوقها فى سيادتها وحريتها . وأن تقوم جميع الأمور بحسب قدرتهم وقواهم التى أنعم الله بها عليهم ومكنهم بها من المحافظة التامة على حقوقهم فى هذا الوجود مؤمنين أوثق الإيمان : أن الله ما استخلفهم فى الأرض إلا لإصلاحها باستثمار خيراتها واستخراج دفائنها وكنوزها ، وتنمية قواهم وطاقاتهم الإنسانية بالعلم والفنون والصناعات ، ومؤمنين أنه يبغض منهم أشد البغض ، أن يكونوا ضعفاء أذلة عالة على غيرهم . فان سنة الله

فى هذا الوجود أن الحياة العزيزة لاتكون إلا لمن أكرم نفسه ، وأعزها ، بحيث يكون الموت أحب إليه من أن يعيش آلاف السنين مهينا ذليلا لايعرفه الوجود إلا تابعا قد تلاشت شخصيته وانماع فى متبوعه . ولقد خلق الله من العرب الضعفاء القليلين خير أمة أخرجت للناس فى كل معاني الحياة العزيزة الكريمة حين فهموا هذا القرآن على وجهه الصحيح وآمنوا به واهتدوا بهداه.

وقال تعالى فى سورة التغابن (فاتقوا الله ما استطعتم) أى اتقوا الله واحذروا شديد عقابه بالقيام بما أمركم به من كل ما فيه الخير والصلاح لكم جماعة ومنفردين بكل جهدكم و بكل ما أعطاكم من طاقة وقوى . فإن هذا هو حق تقواه : وأن يبذل العبد كل ما فى وسعه . وليست ناسخة لآية آل عمران . بل هى مفسرة لها

فكل مصلحة أمر الله بها وهى متوقفة فى حصولها أو فى كمالها على أمر من الأمور السابقة واللاحقة . فانه يجب على الانسان تحصيلها بكل ماعنده من الاستطاعة. فان الله الحكيم لايطلب إلى عباده إلا ما آتاهم من القوى والأسباب مايقدرهم على القيام به .ولكنهم يتوانون ويتكاسلون فيأتيهم العجز والفشل من ذلك وكذلك كل ما نهاهم عنه . فإنه أعطاهم من القوى والأسباب ما يمكنهم من البعد عنه . ومن الحلال ما يستغنون به . فالأمر

بالتقوى. مر بأسبابها أو لازم الحق حق، والوسائل لها أحكام المقاصد

ومن الآيات الجامعة فى السياسة : قوله تعالى فى سورة النساء (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا) والآية التى بعدها . فالأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة ، من أجلها : الولايات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة . الدينيه والدنيوية. فقد أمر الله أن تؤدى إلى أهلها بأن يجعل فيها الأكفاء لها . وكل ولاية لها أكفاء مخصوصون. فهذا الطريق الذى أمر الله به فى الولايات من أصلح الطرق لصلاح جميع الأحوال. فان صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها والمدبرين لها والعاملين عليها، فيجب تولية الأمثل فالأمثل (إن خير من استأجرت القوى الأمين) ولن يتم ذلك للأمة — على ما أرشد الله وأمر — إلا بأن يشعر كل واحد بالواجب عليه لنفسه وما لها وما عليها من الأمانات والواجبات عليه لأبنائه وزوجه ، وخدمه ومواليه و بهائمه ، وأرضه ومتجره ، وكل شىء وضعه الله تحت يده واسترعاه إياه ، و يقدر المسئولية أمام الله سبحانه (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) فيقوم بكل ما فى مكنته وجهده بهذا الواجب غير متوان ولا متوا كل . فعندئذ — وعندئذ

فقط ـ تكون الأمة صالحة فى أفرادها وأسرها وحكامها وأمرائها فصلاح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة وضده بضده. وأصدق البراهين على ذلك قول الله فى سورة الرعد (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فهل آن للذين يتجنون بالشكوى من ولاة أمورهم أن يعقلوا عن الله سننه وحكمته فيعلموا أن الداء ليس فى الحكام والولاة فقط وإنما الداء فى الأمة التى غفلت وغفل كل فرد فيها عن الواجب عليه فيما استرعاه الله من الرعية ، وخيانته لما استأمنه الله من أمانات . وأن الولاة : إنما هم من أفراد الأمة والصورة المصغرة التى تمثل الأمة وتصورها؟ ولكن أكثر الناس لا يعقلون

ثم أرشدهم الله إلى الحكم بين الناس بالعدل الذى ما قامت السموات والأرض إلا به . فالعدل قوام الأمور وروحها . و بفقده تفسد الأمور كلها و يختل الميزان لكل شىء

والحكم بالعدل من لازمه : معرفة حقيقة العدل فى كل أمر من الأمور ، فإن فهمت الامة حقيقة العدل وعرفت حدوده وضعت كل شىء فى موضعه . و كان المتولون للولايات هم الكمل من الرجال والأكفاء للأعمال ، فجرت تدابيرهم وأفعالهم على العدل والسداد متجنبين للظلم والفساد: ترقت الأمة وصلحت أحوالها ،

وتمام ذلك فى الآية الأخرى التى أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور بقوله (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) فهل يوجد أكمل وأغنى من هذه السياسة الحكيمة الرشيدة التى عواقبها أحمد العواقب ؟

ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية : جميع الآيات التى شرع الله فيها الحدود على الجرائم ، والعقوبات على المتجرئين على حقوقه وحقوق عباده ، وهى فى غاية العدالة والحسن وردع المجرمين والنكال والتخويف لأهل الشر والفساد وتطهير المجتمع من فسادهم وتنقيته من جراثيمهم صيانة لدماء الخلق وأموالهم وأعراضهم

والآيات التى فيها الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والتكلم بالحق مع من كان وفى أى حال من الأحوال

وكذلك مافيه من النهى عن الظلم فيه إرشاد لإعطاء الناس الحرية النافعة التى معناها التكلم بالحق والدعوة إلى الصالح للأمة

كما أن الحدود والعقوبات ، والنهى عن الكلام القبيح ، والفعل القبيح فيها ردع عن الحرية الزائفة الكاذبة التى يتمشدق بها الحمقى والسفهاء الذين عموا وصموا ، فلا يرون ماحل بأمم الغرب من الدمار من ثمرات هذه الحرية الفاجرة الخاسرة فإن ميزان

الحرية الصحيحة النافعة هو ما أرشد اليه القرآن والنبى ﷺ . وأما اطلاق عنان الجهل والظلم والاقوال الضارة للمجتمع المحللة للأخلاق . فإنها من أكبر أسباب الشر والفساد ، المؤدية إلى الفوضى المحضة وانحلال الأخلاق التى هى قوام كل أمة . فنتائج الحرية الصحيحة أحسن النتائج . ونتائج الحرية الفاسده أقبح النتائج ، فالشارع فتح الباب للأولى ، وأغلقه عن الثانية ، تحصيلا للمصالح ، ودفعا للمضار والمفاسد . والله أعلم .

القاعدة الاربعون

فى دلالة القرآن على أصول الطب

أصول الطب ثلاثة : حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة والحمية عن الأمور الضارة ، ودفع ما يعرض للبدن من المؤذيات

ومسائل الطب كلها تدور على هذه القواعد

وقد نبه القرآن على حفظ الصحة ودفع المؤذى فى قوله من سورة الأعراف (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) فأمر الله بالأكل والشرب اللذان لا تستقيم الأبدان إلا بهما وأطلق ذلك ، ليدل على أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الانسان ، وينفعه فى كل وقت وحال . ونهى عن الاسراف فى ذلك ، إما بالزيادة فى كمية المأكولات والمشروبات . وإما فى كيفيتها

بالتخليط فى المطعوم والاوقات . وهذا حمية عن كل ما يؤذى الإنسان . فإذا كان القوت الضرورى من الطعام والشراب يصير بحالة يتأذى منه البدن و يتضرر : منع منه ، فكيف بغيره ؟

وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره ، حمية له عن المضرات كلها

وأباح للمحرم الذى به أذى من رأسه أن يحلقه و يفدى . وهذا من باب الاستفراغ و إزالة مايؤذى البدن . فكيف بما ضرره أكبر من هذا ؟

ونهى عن الالقاء باليد إلى التهلكة . فيدخل فى ذلك استعمال كل مايتضرر به الانسان من الأغذية والأدوية ، ودفع مايضر ، بتجنبه والتحرز عنه ، و بمعالجة الحادث مما وقع فيه بالطرق الطبية النافعة

وكذلك ماذكره الله فى كتابه من الأعمال كلها كالجهاد والصلاة والصوم والحج والإحسان إلى الخلق و بقية الأعمال . فإنها و إن كان المقصود الأعظم منها نيل رضى الله وقربه وثوابه ، والإحسان إلى عبيده ، فان فيها صحة للأبدان وتمرينا لها ، ورياضة وراحة للنفس ، وفرحا للقلب وأسرارا خاصة ، تحفظ الصحة وتنميها وتزيل عنها المؤذيات

و يا لجملة فان جميع الشرائع ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح والأخلاق والأبدان والأموال والدنيا والآخرة والله أعلم

القاعدة الحادية والأربعون

يرشد الله عباده فى كتابه من جهة العمل إلى قصر نظرهم على الحالة الحاضرة التى هم فيها ، ومن جهة الترغيب فى الأمر والترهيب من ضده إلى مايترتب عليه من المصالح . ومن جهة النعم وتقديرها بالنظر إلى ضدها .

وهذه القاعدة الجليلة دعا اليها القرآن فى آيات عديدة . وهى من أعظم مايدل على حكمة الله . ومن أعظم مايرقى العالمين إلى كل خير دينى ودينوى . فإن العامل إذا اشتغل بعمله الذى هو وظيفة وقته . قصر فكره وظاهره وباطنه عليه فينجح ويتم له الأمر بحسب حاله . وإن تشوقت نفسه إلى أعمال أخرى لم يحن وقتها بعد شغل بها ثم استبعد حصولها ، ففترت عزيمته ، وانحلت همته ، وصار نظره إلى الأعمال الأخرى كليلا ينقص من اتقان عمله الحاضر وجمع الهمة عليه . ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته وقل نشاطه . وربما كان الثانى متوقفاً على الأول فى حصوله أو تكميله ، فيفوت الأول والثانى ، بخلاف من جمع قلبه وقالبه ، على كل عمل فى وقته . فإنه إذا جاء العمل الثانى يأتيه مستمدا له بقوة ونشاط جديدين حصلها من نشاطه وقوته فى

الأول ، فيتلقاه بشوق وعزيمة فيفلح فيه و ينجح . وهكذا هو أبدا متجدد القوى

ومن هذا : قوله تعالى مصرحا بهذا المعنى فى سورة النساء (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاه وآتوا الزكاة ؟ فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) فانظر كيف حالهم الأولى وأمنيتهم وهم مأمورون بكف الأيدى . فلما لم يقبلوا موعظة الله ، ضعفوا فلما جاءهم العمل الثانى ضعفوا عنه كل الضعف

ونظير هذا ماعاتب الله به أهل أحد فى قوله فى سورة آل عمران (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) وقد كشف هذا كل الكشف قوله تعالى فى سورة النساء (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم . ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً) لأن فيه تكميلا للعمل الأول ، وتثبيتا من الله ، وتمرنا على العمل الثانى

ونظيره قوله تعالى فى سورة التوبة (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا وتولوا وهم معرضون . فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم—(الآية)

فالله أرشد العباد أن يكونوا أبناء وقتهم ، وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته . ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت فاجتمعت الهمة والعزيمة الصادقة عليه. وصار القيام بالعمل الأول معينا على الثانى . وهذا المعنى فى القرآن كثير

وأما الأمور المتأخرة · فان الله يرشد العاملين إلى ملاحظتها لتقوى هممهم على العمل المثمر للصالح والخيرات. وهذا كالترغيب المتنوع من الله على أعمال الخير ،والترهيب من أفعال الشر، بذكر عقوباتها ، وثمراتها الذميمة .

فاعرف الفرق بين النظر إلى العمل الآخر الذى لم يجىء وقته. و بين النظر إلى ثواب العمل الحاضر الذى كلما فترت همة صاحبه زاد وهنا وضعفا ، وكلما اتسع أمله فيما يترتب عليه من الخيرات تجدد نشاطه، وقوى وهانت عليه مشقته . كما قال تعالى (إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون)

وأما إرشاده من جهة النعم التى على العبد من الله بالنظر إلى ضدها ليعرف قدرها ، ويزداد شكره لله عليها . ففى القرآن منه كثير يذكر عباده نعمته عليهم بالدين والإسلام وما ترتب على ذلك من النعم . كقوله فى سورة آل عمران (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته

ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)

وقوله فى سورة آل عمران (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا. وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) أى تهتدون إلى الزيادة من هذه الأسباب والنعم . وقوله فى سورة الأنفال (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) وقوله فى سورة القصص (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ـ الى آخر الآيات) حيث يذكرهم أن ينظروا ضد ماهم فيه من النعم والخير ، ليعرفوا قدرماهم فيه منها

وهذا الذى أرشد اليه النبى ﷺ حيث قال « انظروا الى من هو أسفل منكم . ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لاتزدروا نعمة الله عليكم » وقوله تعالى (فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) وقوله (ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى ؟) إلى آخرها

القاعدة الثانية والأربعون

قد ميز الله فى كتابه بين حقه الخاص ، وحق رسوله الخاص ، والحق المشترك ، وأعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة : حق لله وحده ، لا يكون لغيره ، وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات وحق خاص لرسوله ﷺ وهو التعزير والتوقير والقيام بحقه اللائق واتباعه والإقتداء به ، وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله وطاعة رسوله ومحبة الله ومحبة رسوله

وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة فى آيات كثيرة من القرآن .

فاما حقه الخاص: فكل آية فيها الأمر بعبادته و إخلاص العمل له ، والترهيب من ضد ذلك. وهذا شىء لا يحصى. وقد جمع الله ذلك فى قوله فى سورة الفتح (لتؤمنوا بالله ورسوله) فهذا مشترك (وتعزروه وتوقروه) فهذا خاص بالرسول (وتسبحوه بكرة وأصيلا) فهذا حق لله وحده. وقوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فى آيات كثيرة وكذلك (آمنوا بالله ورسوله) وكذلك قوله فى سورة التوبة (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وقوله تعالى (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) فهذا مشترك (إنا إلى الله رغبون) هذا مختص بالله تعالى

ولكن ينبغى أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه

أن مالله منه يثبت لرسوله مثله ونظيره فى كل خصائصه، بل المحبة والإيمان والطاعة لله لابد أن يصحبها التعبد والتعظيم لله والخضوع رغبة رهبة .

وأما المتعلق بالرسول من ذلك : فانه حب فى الله ، وطاعة لله فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله ، بل حق الرسول على أمته من حق الله تعالى عليهم . فيقوم المؤمن بحق رسوله وطاعته امتثالا لأمر الله ، وعبودية له

و إنما قيل له حق الرسول : لتعلقه بالرسول ، و إلا فجميع ما أمر الله به وحث عليه من القيام بحقوق رسوله ، وحقوق الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب والجيران والعلماء والولاة والأمراء والكبير على الصغير والصغير على الكبير وغيرهم ، كله حق لله تعالى . فيقوم به العبد امتثالا لأمر الله وتعبداً له ، وقياما بحق ذى الحق ، و إحسانا إليه . إلا الرسول فإن الاحسان منه كله إلى أمته . فما وصل إليهم خير إلا على يديه ﷺ تسليما .

القاعدة الثالثة والاربعون

يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة فى الأمور التى يخشى من سوء عواقبها ، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التى يخشى فواتها .

وهذه القاعدة فى القرآن كثيرة .

قال تعالى فى القسم الأول : (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا) الآية . وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة) وفى قراءة (فتثبتوا) فيهما . وقد عاب الله المتسرعين إلى اذاعة الأخبار التى يخشى من اذاعتها وأن ذلك من اتباع خطوات الشيطان . فقال تعالى (و إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول و إلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ـ الآية) وقال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) ومن هذا الباب : الأمر بالمشاورة فى الأمور ، وأخذ الحذر ، وأن لا يقول الانسان ما ليس له به علم . وفى هذا آيات كثيرة .

وأما القسم الثانى : فقوله (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض) الآيات وقوله (فاستبقوا الخيرات)

وقوله(أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون)وقوله(والسابقون السابقون) أى السابقون فى الدنيا إلى الخيرات : هم السابقون فى الآخرة إلى الجنات والكرامات . والآيات فى هذا المعنى كثيرة

وهذا الكمال الذى أرشد الله عباده إليه : هو أن يكونوا حازمين لايفوتون فرص الخيرات . وأن يكونوا متثبتين خشية الوقوع فى المكروهات والمضرات .

ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون .

القاعدة الرابعة والاربعون

عند ميل النفوس أو خوف ميلها إلى ما لاينبغى : يذكرها الله ما يفوتها من الخير ، وما يحصل لها من الضرر بهذا الميل .

وهذا فى القرآن كثير . وهو من أنفع الأشياء فى حصول الاستقامة ، لأن الأمر والنهى المجرد لايكفى أكثر الخلق فى كفهم عما لا ينبغى ، حتى يقرن بذلك مايفوت من المحبوبات التى تزيد ثمراتها الطيبة أضعافا مضاعفة على الذى يكرهه الله ، وتميل إليه النفس ، وما يحصل من المكروه المرتب عليه كذلك . قال تعالى : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) فهنا لما ذكر فتنة الاموال والأولاد التى مالت بأكثر نفوس الخلق عن طريق الاستقامة . قال مذكراً لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها ،

وما يحصل لهم إن سلموا من فتنتها (وأن الله عنده أجر عظيم) وقال تعالى (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة؟ أم من يكون عليهم وكيلا؟) وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها، وماله فى الآخرة من نصيب) وقال تعالى (أفرأيت إن متعناهم سنين، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون؟ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) والآيات فى هذا المعنى الجليل كثيرة جداً.

فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كل مايرد منها على الأصل المقرر. والله أعلم.

القاعدة الخامسة والاربعون

حث البارى سبحانه فى كتابه على الصلاح والاصلاح.

وهذه القاعدة من أهم القواعد. فإن القرآن كله لهذا المقصد نزل

والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة آخذة سبيلها الذى سنه الله، مقصوداً بها غاياتها الحميدة. التى قصد الله إليها. فأمر الله بالأعمال الصالحة، وأثنى على الصالحين.

لأن أعمال الخير تصلح القلوب والإيمان ، وتصلح الدين والدنيا والآخرة. وضدها فساد هذه الأشياء . وكذلك فى آيات متعددة فيها الثناء على المصلحين لما أفسد الناس ، والمصلحين بين الناس وأخبر على وجه العموم أن الصلح خير .

فاصلاح الأمور الفاسدة : هو السعى فى إزالة ما تحتوى عليه وتنتجه من الشرور والضرر العام والخاص .

ومن أهم أنواع الاصلاح : السعى فى إصلاح أحوال المسلمين فى إصلاح دينهم ودنياهم . كما قال شعيب عليه السلام (إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت) فكل ساع فى مصلحة دينية أو دنيوية ، فإنه مصلح . والله يهديه ويرشده ويسدده . وكل ساع بضد ذلك فهو مفسد . والله لا يصلح عمل المفسدين .

ومن أهم ما حث الله عليه : السعى فى الصلح بين المتنازعين ، كما أمر الله بذلك فى الدماء والاموال ، والحقوق المتنازع عليها بين الزوجين . والواجب أن يصلح بالعدل ويسلك كل طريق توصل إلى الملائمة بين المتنازعين . فإن آثار الصلح بركة وخير وصلاح ، حتى ن الله أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحربيون إلى المسالمة والمصالحة : أن يوافقوهم على ذلك متوكلين على الله . وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر .

وحقيقتها: السعى فى الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح أوتكميلها ، أو إزالة المفاسد والمضار أو تقليلها : الكلية منهاوالجزئية ، المتعدية والقاصرة . والله أعلم .

القاعدة السادسة و الاربعون

ما أمر الله به فى كتابه : إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه. فهذا أمر له بالدخول فيه . و إما أن يوجه لمن دخل فيه . فهذا أمره به ليصحح ما وجد عنده منه ، و يسعى فى تكميل مالم يوجد فيه .

وهذه القاعدة مطردة فى جميع الأوامر القرآنية : أصولها وفروعها .

فقوله تعالى (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا) من القسم الأول . وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا) من الثانى والثالث . فانه أمرهم بما يصحح و يكمل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة . وكمال الاخلاص فيها . ونهاهم عما يفسدها وينقصها. وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة و يصوموا رمضان أمر بتكميل ذلك ، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل . ونهى عن كل مفسد وناقص لذلك العمل

وكذلك أمره لهم بالتوكل والانابة ونحوها من أعمال القلوب هو أمر بتحقيق ذلك ، و إيجاد مالم يوجد منه .

و بهذه القاعدة نفهم جواب الايراد الذى يورد على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم . مع أن الله قد هداهم للاسلام . جوابه : ماتضمنته هذه القاعدة .

ولا يقال : هذا تحصيل للحاصل. فافهم هذا الأصل الجليل النافع ، الذى يفتح لك من أبواب العلم كنوزاً ، وهو فى غاية اليسر والوضوح لمن تفطن .

القاعدة السابعة والاربعون

إذا كان سياق الآيات فى أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها وذلك الحكم لايختص بها ، بل يشملها و يشمل وغيرها : جاء الله بالحكم العام .

وهذه القاعدة من أسرار القرآن و بدائعه ، وأكبر دليل على إحكامه و إنتظامه العجيب . وأمثلة هذه القاعدة كثيرة .

منها : لما ذكر الله المنافقين وذمهم ، استثنى منهم التائبين فقال (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين) فلما أراد أن يحكم لهم بالأجر لم يقل :

وسوف يؤتيهم أجراً عظيما ، بل قال (وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيما)ليحضهم على المسارعة الى التوبة و إخلاص الايمان ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن ، ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم

ولما قال (إن الذين يكفرون بالله ورسله و يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ـ إلى قوله ـ أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً)،لم يقل :وأعتدنا لهم،للحكمة التي ذكرناها . ومثله (قل الله ينجيكم منها) أى هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها (ومن كل كرب)

القاعدة الثامنة والاربعون

متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها . كان المراد بذلك : العلم الذى يترتب عليه الجزاء . وذلك : أنه قد تقرر فى الكتاب والسنة والاجماع أن الله بكل شيء عليم . وأن علمه محيط بالعالم العلوى والسفلى ، والظواهر والبواطن ، والجليات والخفيات ، والماضى والمستقبل ، وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع وقدر كذا : ليعلم كذا .

فوجه هذا : أن هذا العلم الذى يترتب عليه الجزاء

وأما علمه بأعمال العباد ، وما هم عاملون قبل أن يعملوا . فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء لأنه إنما يجازى على ماوجد من الأعمال

وعلى هذا الأصل نزل مايرد عليك من الآيات كقوله (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم. ليعلم الله من يخافه بالغيب) وقوله (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) وقوله تعالى (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) وقوله (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وقوله (لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) وما أشبه هذه الآيات ، كلها على هذا الأصل .

القاعدة التاسعة والاربعون

إذا منع الله عباده المؤمنين شيئا تتعلق به إرادتهم ، فتح لهم باباً أنفع لهم منه ، وأسهل وأولى .

وهذا من لطفه . قال تعالى (ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض . للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب ممن اكتسبن . واسئلوا الله من فضله) فنهاهم عن تمنى ما ليس بنافع ، وفتح لهم أبواب الفضل والاحسان . وأمرهم أن يسألوه بلسان المقال ، و بلسان الحال .

ولما سأل موسى عليه السلام ربه الرؤية حين سمع كلامه ، ومنعه منها ، سلاه بما أعطاه من الخير العظيم . فقال (ياموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتى و بكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) وقوله تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) وقوله تعالى (و إن يتفرقا يغنِ الله كلا من سعته) وفى هذا المعنى آيات كثيرة .

القاعدة الخمسون

آيات الرسول : هى التى يبديها البارى ويبتديها

وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه ، فليست آيات . وإنما هى تعنتات وتعجيزات .

وبهذا يعرف الفرق بينها وبين الآيات . وهى البراهين والأدلة على صدق الرسول وغيره من الرسل . وعلى صدق كل ما أخبر الله به ، وأنها الأدلة والبراهين التى يلزم من فهمها على وجهها صدق مادلت عليه ويقينه .

وبهذا المعنى الحديث «ما أرسل الله من رسول إلا أعطاه من الآيات ما على مثله آمن البشر» وأما ما آتى الله محمداً ﷺ من الآيات فهى لا تحد ولا تعد من كثرتها ، وقوتها ووضوحها . ولله الحمد . فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر .

فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعينونها ليست من هذا القبيل . وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطنوا أنفسهم على دينهم الباطل وعدم اتباع النبى ﷺ . فلما دعاهم إلى الايمان وأراهم شواهد الآيات أرادوا أن يبرروا ماهم عليه عند الاغمار والسفهاء ، بقولهم : ائتنا بالآية الفلانية ، والآية الفلانية ، إن

كنت صادقا . فهذه طريقة لايرتضيها أدنى منصف . ولهذا يخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ماطلبوا لم يؤمنوا لأنهم وطنوا أنفسهم على الرضا بدينهم بعد ماعرفوا الحق ورفضوه

وأيضا فهذا من جهلهم فى الحال والمآل

أما الحال : فإن هذه الآيات التى يقترحونها جرت العادة ان المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق . فإذا جاءت ولم يؤمنو عوجلوا بالعقوبة الحاضرة

وأما المآل : فإنهم أظهروا أنهم جزموا جزماً لاتردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا .وهذا قلب للحقائق، واخبار بغير الذى فى قلوبهم . فلو جاءتهم كل آية اقترحوها لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله تعالى

وهذا النوع ذكره الله فى كتابه عن المكذبين فى آيات كثيرة جدا . كقولهم (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) الآيات . وقوله(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا — إلى آخرها)

وأيضاً فإن اقتراحهم هذا ينادى صريحاً بأنهم ينسبون إلى الله العجز والعبث ، إذ أنه أرسل رسولا لم يؤيده بالآيات الكافية فى

الدلالة على صدقه. ولم يعطه من البراهين والحجج مايبطل دعاوى خصمه .وهذا ينافى الحكمة ، ولا يتفق مع الغرض الذى من اجله أرسل الله رسوله . وهذا أعظم كفر و إجرام أشد من شركهم وفسوقهم . وما كان يتولى كبره منهم إلا السادة والرؤساء الذين تبين لهم صدق الرسول بدون أى خفاء . ولكنهم يحاولون بذلك صرف العامة والدهماء عن الإستماع إليه والاصغاء إلى قوله . ولذلك يدمغهم الله بميسم الخزى عقب كل تعنت واقتراح لآية ، بعد أن ينزه نفسه سبحانه عما ينتقصونه به . ففى سورة الإسراء يقول عقب سرد ما اقترحوا من آيات (قل سبحان رب) ثم يقول (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا و بكما وصما) و يقول فى سورة العنكبوت (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون .وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون . وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه ؟ قل إنما الآيات عند الله . و إنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله بينى و بينكم شهيدا ، يعلم مافى السموات والأرض . والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون)

وأيضا إذا تدبرت الاقتراحات التى عينوها لم تجدها فى الحقيقة من جنس البراهين ، و إنما هى ـ لو فرض الإتيان بها ـ شبيهة بآيات الاضطرار التى لا ينفع الإيمان معها ، و يصير شهادة. و إنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب . فكما أن الله المنفرد بالحكم بين العباد فى أديانهم ، وحقوقهم . وأنه لا حكم إلا حكمه . وأنه من قال ينبغى أو يجب أن يكون الحكم كذا وكذا فهو متجرىء على الله ، متوثب على حرمات الله ، وأحكامه . فكذلك براهين أحكامه لا يتولاها إلا هو . فمن اقترح شيئاً من عنده فقد ادعى مشاركة الرب فى حكمه ، ومنازعته فى الطرق التى يهدى و يرشد بها عباده (ومن أظلم ممن قال سأنزل مثل ما أنزل الله)

القاعدة الحادية والخمسون

كل ماورد فى القرآن من الأمر بالدعاء ، والنهى عن دعاء غير الله والثناء على الداعين : يتناول دعاء المسألة، ودعاء العبادة وهذه قاعدة نافعة. فإن أكثر الناس انما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة : دعاء المسألة فقط . ولا يظنون دخول جميع العبادات فى الدعاء

وهذا خطأ جرهم إلى ما هو شر منه . فان الآيات صريحة فى شموله

لدعاء المسألة والعبادة . و يدل على عموم ذلك قوله تعالى (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) أى استجب طلبكم ، وأتقبل عملكم ثم قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) فسمى ذلك عبادة . وذلك لأن الداعى دعاء المسألة يطلب سؤله بلسان المقال . والعابد يطلب من ربه القبول والثواب ، ومغفرة ذنوبه بلسان الحال

فلو سألت أى عابد مؤمن : ماقصدك بصلاتك وصيامك وحجك وأدائك لحقوق الله وحق الخلق ؟ لكان قلب المؤمن ناطقا قبل أن يجيبك لسانه : بأن قصدى من ذلك رضى ربى ، ونيل ثوابه ، والسلامة من عقابه : ولهذا كانت النية شرطا لصحة الأعمال وقبولها ، و إثماوها الثمرة الطيبة فى الدنيا والآخرة

وقال تعالى (فادعوا الله مخلصين له الدين) فوضع كلمة « الدين » موضع كلمة «العبادة» وهو فى القرآن كثير جداً : يدل على أن الدعاء هو لب الدين وروح العبادة . ومعنى الآية هنا : أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم ، وأخلصوا له أعمال البر والطاعة

وقد يقيد أحيانا بدعاء الطلب ، كقوله (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) وأما قوله (فإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه

أو قاعدا أوقائما ـ الآية) فيدخل فيه دعاء الطلب ، فإنه لايزال ملحا بلسانه ، سائلا دفع ضرورته . و يدخل فيه دعاء العبادة ، فإن قلبه فى هذه الحال يكون راجيا طامعا ، منقطعا عن غير الله ، عالما أنه لايكشف ما به من السوء إلا الله . وهذا دعاء عبادة

وقوله (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) يدخل فيه الأمران . فكما أن من كمال دعاء الطلب : كثرة التضرع والإلحاح ، و إظهار الفقر والمسكنة ، و إخفاء ذلك و اخلاصه ، فكذلك دعاء العبادة فإن العبادة لاتتم ولا تكمل إلا بالمداومة عليها ومقارنة الخشوع والخضوع لها و إخفائها ، و إخلاصها لله تعالى

وكذلك قوله عن خلاصة الرسل (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات و يدعوننا رغبا ورهبا) فإن الرغبة والرهبة وصف لهم كلما طلبوا وسألوا . ووصف لهم كلما تعبدوا وتقربوا بأعمال الخير والقرب .

وقوله (ولاتدع مع الله إلها آخر) (ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به) (فلا تدعوا مع الله أحدا)يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة

فكما أن من طلب من غير الله حاجة لايقدر عليها إلا الله فهو مشرك كافر . فكذلك من عبد مع الله غيره فهو مشرك كافر.

ومثله (ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين) كل هذا يدخل فيه الأمران

وقوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة . أما دعاء المسألة فإنه يسأل الله تعالى فى كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب . ويقتضيه . فمن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الغفور الرحيم . ومن سأل الرزق سأله باسم الرزاق . وهكذا

وأما دعاء العبادة فهو التعبد لله تعالى باسمائه الحسنى ، فيفهم أولا معنى ذلك الاسم الكريم ، ثم يديم استحضاره بقلبه ، حتى يمتلىء قلبه منه . فالاسماء الدالة على العظمة والجلال ، والكبرياء تملأ القلب تعظيما و إجلالا لله تعالى . والأسماء الدالة على الرحمة والفضل والاحسان تملأ القلب طمعا فى فضل الله ورجاء لروحه ورحمته . والأسماء الدالة على الود والحب والكمال تملأ القلب محبة وودا وتألها و إنابة لله تعالى . والاسماء الدالة على سعة علمه ولطيف خُبره توجب للعبد مراقبة الله تعالى والحياء منه

وهذه الأحوال التى تتصف بها القلوب هى أكمل الأحوال ، وأجل وصف يتصف به القلب و ينصبغ ، به ولا يزال العبد يمرن

نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة
وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية

فنسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة اليه ، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين

القاعدة الثانية والخمسون

إذا وضح الحق و بان لم يبق للمعارضة العلمية ولا العملية محل

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية . قد وردت فى القرآن وأرشد إليها فى مواضع كثيرة

وذلك : أنه من المعلوم أن محل المعارضات ، وموضع الإستشكالات ، وموضع التوقفات ، ووقت المشاورات هو إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات فترد عليه هذه الأمور . لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح . فاذا كان الشيء لا يحتمل إلا معني واحدا واضحا ، وقد تعينت المصلحة . فالمجادلة والمعارضة من باب العبث . والمعارض هنا لا يلتفت إلى اعتراضاته ، لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات قال تعالى (لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى) يعنى و إذا تبين هذا من هذا لم يبق للاكراه محل ، لأن الإكراه إنما يكون على أمر فيه مصلحة خفية . فأما أمر قد اتضح

أن مصالح وسعادة الدارين مربوطة ومتعلقة به ، فأى داع للاكراه فيه ؟

ونظير هذا قوله تعالى (وقل الحق من ربكم . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أى هذا الحق الذى قامت البراهين الواضحة على حقيته فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . كقوله (ليهلك من هلك عن بينة من حَىّ ويحيا عن بينة) وقال تعالى (وشاورهم فى الأمر) أى فى الأمور التى تحتاج إلى مشاورة ، ويطلب فيها وجه المصلحة . فأما أمر قد تعينت مصلحته ، وظهر وجوبه فقال فيه فإذا عزمت فتوكل على الله

وقد كشف الله هذا المعنى غاية الكشف ، فى قوله (يجادلونك فى الحق بعد ماتبين) أى فكل من جادل فى الحق بعد ماتبين علمه ، أو طريق علمه . فانه غالط شرعا وعقلا. وقال تعالى (ومالكم أن لاتأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم) فلا مهم على عدم التزام الأكل مما ذكر اسم الله عليه وذكر السبب لهذا اللوم . وهو أنه تعالى فصل لعباده كل ما حرم عليهم. فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محل

ولما ذكر تعالى الآيات الدالة على وجوب الإيمان ، وبخ ولام

المتوقفين عنه بعد البيان ، فقال (فما لهم لا يؤمنون و إذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون؟)

ولما بين جلال القرآن وأنه أعلى الكلام ، وأوضحه بيانا وأصدقه وأنفعه ثمرة . قال تعالى(فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) ولما ذكر عظيم نعمه الظاهرة والباطنة قال تعالى (فبأى آلاء ربك تتمارى ؟) (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقال تعالى (فماذا بعد الحق الا الضلال ؟) وكذلك فى آيات كثيرة يأمر بمجادلة المكذبين ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، حتى إذا وصل معهم إلى حالة وضوح الحق التام و إزالة الشبه كلها انتقل من مجادلتهم إلى الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة ، والآيات فى هذا المعنى الجليل كثيرة جدا

القاعدة الثالثة والخمسون

من قواعد القرآن :أن يبين الأجر والثواب على قدر المشقة فى الطاعة والعبادة ، و يبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منه ، و إحسانه ، وأنها لا تنقص من الأجر شيئا

وهذه القاعدة تبين من لطف الله و إحسانه بالعباد ، وحكمته الواسعة،ما هو أثر عظيم من آثار فضله ونفحة من نفحاته ،

المشقات بالنسبة إلى ماتفضى اليه من الكرامات ليست بشيء بل هى خير محض . و إحسان صرف من الله على عباده ، حيث قيض لهم هذه العبادات التى توصلهم إلى منازل من العز والكرامة فى الدنيا والآخرة ، لولاها لم يكونوا واصلين إليها . وقال تعالى (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون) وقال (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . و بشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا لله لراجعون ـ الآية) وقال (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فكلما عظمت مشقة الصبر فى فعل الطاعات ، وفى ترك المحرمات لقوة الداعى إليها ، وفى الصبر على المصيبات لشدة وقعها ، كان الأجر أعظم والثواب أكبر

وقال تعالى فى بيان لطفه فى تسهيل العبادة الشاقة (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، و ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به و يذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم و يثبت به الأقدام : إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم : فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فذكر منته على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التى يسر بها العبادة ، مزيلة ، محصلة لثمراتها

وقال تعالى (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) فالبشرى التى وعد الله بها أولياءه فى الحياة الدنيا من أشرفها وأجلها : أن ييسر لهم العبادات ، ويهون عليهم مشقة القربات ، وأن ييسرهم للخير ، ويجنبهم الشر بأيسر عمل . قال : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) أى لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) ومن الحياة الطيبة التى يرزقونها : ذوق حلاوة الطاعات ، واستعذاب المشقات فى رضى الله تعالى .

فهذه الأحوال كلها خير للمؤمن . إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حمد الله وشكره و إن قامت العقبات صبر فى اقتحامها واحتسب الخير فى عنائه وجهاده ، ورجا عظيم الثواب وهذا المعنى فى القرآن فى آيات متعددة . والله أعلم

القاعدة الرابعة والخمسون

كثيراً ماينفى الله الشيء وإن كانت صورته موجودة : لعدم وجود فائدته وثمرته المقصودة منه

وذلك أن الله خلق الإنسان وركب فيه القوى : من السمع والبصر ، والفؤاد وغيرها . ليعرف بها ربه ، ويقوم بحقه . فهذا المقصود منها ، وباستعمالها محررة من قيود التقليد — فى التأمل والتفكر فى آيات الله وسننه التى لاتبديل لها يتحقق لصاحبها ماخلقت له فتنمو وتكمل ويكمل صاحبها . وبفقد ذلك يكون وجودها أضر على الإنسان من عدمها . فإنها حجة الله على عباده ونعمته التى توجد بها مصالح الدين والدنيا . فاما أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها ، أو تكون محنة وحجة على صاحبها إذا استعملها فى غير ما خلقت له . ولهذا كثيراً ما ينفى الله هذه الأمور الثلاثة عن أصناف الكافرين بها المكبلين بسلاسل وأغلال التقليد الأعمى للآباء والسادة والرؤساء ، المنسلخين من آيات الله . وإن تسموا بأسماء إسلامية ولبسوا ثيابا وألقابا علمية ، فهم المعنيون فى كلام الله بوصف الكفار والمنافقين . كقوله (وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا . أولوكان

آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون . ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) (ولكن أكثرهم لا يعقلون) (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال فى سورة الأعراف (و إذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم؟) وهذه آيات ربوبيته واضحة ناطقة فيكم ، وفى تكوينكم فى أصلاب آبائكم وأرحام أمهاتكم و إخراجكم منها بشراً سوياً وتسخير ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً لكم - ثم ساق الآيات فى عاقبة غفلة الإنسان عن تلك الآيات . و بين سبب هذه الغفلة بقوله (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) أى ألقاها وخلعها كارها لها (ولو شئنا لرفعناه بها) فما أعطيناها له إلا ليتفكر بها فى خلق الله وحكمته فيرتفع على درجات الكمال . ولكنه أخلد إلى أرض البهيمية رضى بالتقليد الأعمى الذى هو من خصائص الأنعام . ثم ختمها بسوء عاقبة هذا المنسلخ المقلد بقوله(لهم قلوب لا يفقهون بها . ولهم أعين لا يبصرون بها . ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) فاخبر أن صور الحواس الحيوانية موجودة ولكن فوائدها الإنسانية مفقودة ولذلك قال (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال

(وإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا . فهم مسلمون) والآيات فى هذا المعنى كثيرة جداً .

وقال تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا) فأثبت لهم الكفر من كل وجه . لأن دعواهم الإيمان بما يقولون آمنا به من الكتب والرسل لم يوجب لهم الدخول فى حقيقة الإيمان ، لأن ثمرة إيمانهم مفقودة ، حيث كذبوهم فى صحة رسالة محمد ﷺ وغيره ممن كفروا به . وحيث أنكروا من براهين الإيمان ماهو أعظم مما أثبتوا به رسالة من زعموا الإيمان به ، وكذلك قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) لما كان الإيمان النافع هو الذى يُغرس فى قلب سليم من الجهل والشكوك والشبهات والتقاليد ويُسقى بعصارة تدبر آيات الله الكونية والقرآنية فيثمر فى القلب والجوارح أطيب الثمرات من العبادة والطاعة . وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . نفى عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته .

ويشبه هذا : ترتيب البارى كثيرا من الواجبات والفروض

على الإيمان . كقوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وقوله (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ـ إلى قوله ـ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) وقوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا) وذلك أن الإيمان الصادق يقتضي صدق العقيدة وأداء الفرائض والواجبات ، واجتناب الشرك والمحرمات. فما لم يحصل ذلك فهو بعد لم يتم ولم يتحقق ، ولهذا قال (أولئك هم المؤمنون حقا) .

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به ، والانقياد لكتب الله ورسله . قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) ونظير ذلك : قول موسى عليه السلام لما قال له بنو اسرائيل (أتتخذنا هزواً ؟ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) فإذا كان فقد العلم جهل قبيح ففقد العمل به جهل أقبح وأشنع .

القاعدة الخامسة والخمسون

يكتب الله للعبد عمله الذى باشره ويكمل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله قهراً عنه ، ويكتب له آثار عمله . فهذه الأمور الثلاثة وردت فى القرآن .

أما الأعمال التى باشرها العبد : فأكثر من أن تحصى النصوص فيها . كقوله (بما كنتم تعملون) (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (لى عملى ولكم عملكم) ونحو ذلك .

أما الأعمال التى عجز العبد عن تكميلها : فكقوله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجر إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) فهذا خرج قاصدا إلى الهجرة ، وأدركه الأجل قبل تكميل عمله . فأتم الله له ماقصد اليه وأعطاه أجره. فكل من شرع فى عمل من أعمال الخير ، ثم عجز عن إتمامه بما هو فوق طاقته . وكان من نيته إكماله ـ فقد وقع أجره على الله . فإنما الأعمال بالنيات . وقال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فكل من اجتهد فى الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه ، سواء كمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه .

وأما آثار أعمال العبد : فقد قال تعالى (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا) أى باشروا عمله (وآثارهم) التى ترتبت على أعمالهم من خير وشر فى الدنيا والآخرة . وقال فى المجاهدين (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدوٍّ نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح. إن الله لا يضيع أجر المحسنين) فكل هذه الأمور من آثار عملهم . ثم ذكر أعمالهم التى باشروها بقوله (ولا ينفقوا نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) .

والأعمال التى هى من آثار عمل العبد نوعان .

أحدهما : أن تقع بغير قصد من الأنسان . كأن يعمل أعمالا صالحة خيرية ، فيقتدى به غيره فى هذا الخير ، فإن ذلك من آثار عمله. وكمن يتزوج بقصد الاعفاف فقط ، فيعطيه الله أولاداً صالحين ينتفع بهم و بدعائهم .

والثانى : وهو أشرف النوعين : أن يقع ذلك بقصده ، كمن علم غيره علماً نافعا ، فنفس تعليمه ومباشرته له من أجل الأعمال . ثم ماحصل من العلم والخير المترتب على ذلك . فإنه من آثار عمله . وكمن يفعل الخير ليقتدى به الناس ، أو يتزوج للعفة

ولحصول الذرية الصالحة ، فيحصل مراده ، فإنه من آثار عمله وكذلك من يزرع زرعاً أو يغرس غرسا ، أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس فى أمر دينهم ودنياهم . وقد قصد بذلك حصول النفع له ولغيره . فما ترتب من نفع على هذا العمل . فإنه من آثار عمله . وإن كان يأخذ على عمله أجراً وعوضا . فإن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة : صانعه ، ورأميه ، والممدّ به .

القاعدة السادسة والخمسون

يرشد القرآن المسلمين إلى إقامة جميع مصالحهم ، وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة ، من يقدر على القيام بها ، وليوفر وقته عليها . لتقوم مصالحهم ، وتكون وجهتهم جميعاً واحدة .

وهذه من القواعد الجليلة ، ومن السياسة الشرعية الحكيمة . فإن كثيراً من المصالح العامة الكلية لا يمكن أن يشتغل الناس كلهم بها . ولا يمكن تفويتها . فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه . قال تعالى فى الجهاد والعلم اللذين هما من أعظم مصالح الدين (وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم

طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) فأمر ان يقوم بالجهاد طائفة كافية ، وبالعلم طائفة أخرى. وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك مافاتها من العلم إذا رجعت . وقال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر) وقال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) وقال (فاتقوا الله ما استطعتم) وقال تعالى (وأمرهم شورى بينهم) الى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة ، و بقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها . لأن كل فرد مأمور أن يراعى المصالح الكلية ، وأن يكون سائراً فى جميع أعماله إليها . فلو وفق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم ، وصلحت أمورهم ، وانجابت عنهم شرور كثيرة . فالله المستعان .

القاعدة السابعة والخمسون

فى كيفية الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيها على التوحيد والمطالب العالية .

قد دعا الله عباده إلى التفكر فى هذه المخلوقات فى آيات كثيرة ، وأثنى على المتفكرين فيها . وأخبر أن فيها آيات وعبرا نحن محتاجون إلى فهمها ومعرفة مافيها لمصالح ديننا ودنيانا . فينبغى لنا أن نسلك هذا الطريق المنتج للمطلوب بأيسر وأوضح ما يكون .

وحاصل ذلك على وجه الإجمال : أننا إذا تفكرنا فى هـذا الكون العظيم ، عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد ، ولا أوجد نفسه ـ هذا أمر بديهى ـ فتيقنا أن الذى أوجده هو الأول الذى ليس قبله شىء وهو الآخر الذى ليس بعده شىء . الكامل القدرة العظيم السلطان ، الواسع العلم ، وأن إعادتنا فى النشأة الثانيـة للجزاء أسهل عليه من نشأتنا الدنيوية بكثير (لخلق السموات أكبر من خلق الناس) وعرفنا بذلك أنه الحى القيوم

و إذا نظرنا ما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع عرفنا

بذلك كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه وعرفنا من آثار حكمته فينا وفى هذا الوجود أنه ماخلقنا لهذه الحياة قصدا وإنما خلقنا لنستعد فيها للنشأة الاخرى

و إذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التى لا تحصى . عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة ، عظيم الفضل والبر والإحسان ، والجود والامتنان . و إذا رأينا ما فيهـا من التخصيصات فإن ذلك دال على إرادة الله ونفوذ مشيئته ونعرف بذلك كله أن مَن هذه أوصافه . وهذا شأنه: هو الذى لا يستحق العبادة أحد سواه . وأنه المحبوب المحمود ، ذو الجلال والإكرام، الذى لا تنبغى الرغبة والرهبة إلا اليه . ولا ينبغى صرف خالص الدعاء إلا له . لان غـيره من المخـلوقات المربوبات امفتقرات اليه وحده فى جميع شئونها

ثم اذا نظرنا اليها من جهة أنها كلها خلقت لمصالحنا . وأنها مسخرة لنا، وأن عناصرها وموادها وأرواحها قد مكن الله الآدميين من استخراج أصناف المنافع منها : عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة فى الأوقات الأخيرة ، من جملة المنافع التى خلقها الله لبنى آدم فيها. فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه فى استخراج ما يصلح أحوالنا منها ، بحسب القدرة . و لم نخلد الى الـكسل

والبطالة ، أو نزعم أن علم هذه الأمور واستخراجها علوم باطلة ، بحجة أن الكفار سبقونا اليها ، وفاقونا فيها . فانها كلها — كما نبه الله — داخلة فى تسخير الله الكون لنا ، وأنه يعلّم الإنسان ما لم يعلم .

القاعدة الثامنة والخمسون

اذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة قرن بهم الناقصين فيهامن المستعدين للكمال وذلك فى أمور كثيرة وردت فى القرآن

منها : لما أراد الله اظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم . وعلمه أسماء كل شىء ثم امتحن الملائكة ، فعجزوا عن معرفتها . فحينئذ نبأهم آدم بها . فخضعوا لعلمه ، وعرفوا فضله وشرفه

ولما أراد الله إظهار شرف يوسف فى سعة العلم والتعبير أرى الملك تلك الرؤيا ، وعرضها على كل من له علم بها ومعرفة فعجزوا عن معرفتها . ثم بعد ذلك عبرها يوسف ذلك التعبير العجيب ، الذى ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شىء لا يمكن التعبير عنه

ولما عارض فرعون الآيات التى أرسل بها موسى ، وزعم أنه سيأتى بسحر يغلبه . فجمع كل سحار عليم من جميع أنحاء المملكة

واجتمع الناس فى يوم عيدهم وألقى السحرة عصيهم وحبالهم فى ذلك المجمع العظيم ، وأظهروا للناس من عجائب السحر (فسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم) فحينئذ ألقى موسى عصاه ، فإذا هى تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميع حبالهم وعصيهم فظهرت هذه الآية الكبرى . وكان السحرة أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهراً و باطنا

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبى ﷺ وتمالأ عليه أعداؤه ، ومكروا مكرتهم الكبرى للايقاع به . نصره الله ذلك النصر العجيب . فان نصر المنفرد الذى أحاط به عدوه الشديد حَرَده ، القوى مكره ، الذى جمع كل كيده ليوقع به أشد الأخذات وأعظم النكبات ، وتخلصه وانفراج الأمر له : من أعظم أنواع النصر . كما ذكر الله هذه الحال التى عاتب بهـا أهل الأرض . فقال (إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن . إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم)

وقريب من هذا : نصره له يوم حنين ، حيث أعجب المسلمين كثرتهم . فلم تغن عنهم شيئا . وضاقت عليهم الأرض

بمارحبت ثم ولوا مدبرين . وثبت الله نبيه ﷺ . فأنزل عليه سكينته ونصره فى هذه الحال الحرجة ، فكان لهذا النصر من الموقع الكبير مالا يعبر عنه . وكذلك ماذكره الله من الشدائد التى جرت على أنبيائه وأصفيائه ، وأنه إذا اشتد البأس ، وكاد أن يستولى على النفوس اليأس ، أنزل الله فرجه ونصره ليكون لذلك موقع فى القلوب وليعرف العباد ألطاف علام الغيوب

ويقارب هذا : إنزاله الغيث على العباد ، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليهم مبلسين ، فيحصل من آثار نعمة الله ، والاستبشار بفضله ، ما يملأ القلوب حمداً وشكراً . وثناء على البارى تعالى . وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدها ، كقوله (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟) وقوله (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ ومن رحمته جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)

ونلمح مثل هذا المعنى فى قصة يعقوب وبنيه ، حين اشتدت

بهم الأزمة ودخلوا على يوسف ، وقالوا (قد مسنا وأهلنا الضر) الآية ثم بعد قليل قال (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) فى تلك النعمة الواسعة والعيش الرغيد والعز المكين ، والجاه العريض فتبارك من لا يدرك العباد من ألطافه ودقيق بره أقل القليل

ويناسب هذا من ألطاف البارى : أن الله يذكّر عباده أثناء المصائب ما يقابلها من النعم، لئلا تسترسل النفوس فى الجزع فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب . وهان عليها حملها ، كما ذكر الله المؤمنين حين أصيبوا بأحد : ما أصابوا من المشركين ببدر . فقال (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أنى هذا قل إنه من عند أنفسكم ؟)

وكذلك يبشر الله عبده بالمخرج من المصائب قبل أن تقلع عنه ، ليكون هذا الرجاء مخففا لما نزل به من البلاء . قال تعالى (وأوحينا إليه لننبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وكذلك رؤيا يوسف كان يعقوب إذا تذكرها . هب على قلبه نسيم الرجاء ولهذا قال (يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه، ولا تيأسوا من روح الله) . وكذلك قوله لأم موسى فى سورة القصص (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى . إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين)

وأعم من هذا كله : وعد الله لرسله بتمام الأمر و بالنصر وحسن العاقبة كان يهون عليهم به المشقات . ويسهل عليهم الكريهات، فيتلقوها بقلوب مطمئنة وصدور منشرحة . وألطاف البارى فوق ما يخطر بالبال ، أو يدور فى الخيال ولكن أكثر الناس لا يفقهون

القاعدة التاسعة والخمسون

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم)

ما أعظم هذه القاعدة ، وما أحكم هذا الأصل العظيم الذى نص نصاً صريحاً على عموم ذلك. وعدم تقيد هذا الهدى بحالة من الأحوال . فكل حالة هى أقوم: فى العقائد، والأخلاق ، والاعمال، والسياسات الكبار ، والصغار ، والصناعات ، والاعمال الدينية ، والدنيوية فإن القرآن يهدى لها و يرشد اليها، و يامر بها، و يحث عليها

ومعنى « أقوم » أى أكرم وأنفس وأصلح وأكمل استقامة ، وأعظم قياما وصلاحا للأمور

فأما عقائد القرآن : فإنها هى العقائد النافعة التى فيها صلاح القلوب، وحياتها ، وكمالها. فإنها تملأ القلوب عزة وكرامة بشعورها بالتجرد من الذل لمخلوق مثلها وشرفها بتخصصها لمحبة الله تعظيماله وتألها وتعبداً و إنابة . وهذا المعنى هو الذى أوجد الله الخلق لأجله

وأما أخلاقه التى يدعو اليها . فإنه يدعو إلى التحلى بكل

خلق جميل : من الصبر ، والحلم ، والعفو ، والادب ، وحسن الخلق مع الله ، ومع الخلق ، وجميع مكارم الاخلاق . ويحث عليها بكل طريق يؤلف القلوب ، ويجمع المتفرق

وأما الأعمال الدينية التى يهدى اليها . فهى أحسن الأعمال التى فيها القيام بحقوق الله ، وحقوق عباده على أكمل الحالات وأجلها وأسهلها ، وأوصلها إلى المقاصد

وأما السياسات الدينية والدنيوية . فهو يرشد إلى سلوك الطرق النافعة فى تحصيل المقاصد . والمصالح الكلية ، وفى دفع المفاسد . ويامر بالتشاور على مالم تتضح مصلحته والعمل بما تقتضيه المصلحة فى كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال حتى فى سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله ، وخادمه ، وأصحابه ، ومعامليه فكل مصلحة يتفق العقلاء أنها أقوم وأصلح من غيرها . فإن القرآن يرشد اليها نصاً أوظاهراً ، أو دخولا تحت قاعدة من قواعده الكلية

وتفصيل هذا الأصل لايمكن استيفاؤه فى هذه القواعد الإجمالية فكل التفاصيل الواردة فى الكتاب والسنة ، وما تقتضيه المصالح تفصيلا لهذا الأصل المحيط .

وبهذا وغيره يتبين لك أنه لايمكن أن يرد علم صحيح أو معنى نافع ، أو طريق صلاح يحرمه القرآن . والله ولى الإحسان

القاعدة الستون

من قواعد التعليم التى أرشد الله اليها فى كتابه ، أن القصص المبسوطة يجملها فى كلمات يسيرة ثم يبسطها . وأن الأمور المهمة يتنقل فى تقريرها نفيا و إثباتا من درجة إلى أعلى أو أنزل منها

وهذه قاعدة نافعة . فإن هـذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير ، وتتقرر فيه المطـالب المهمة . وذلك أن القصة إذا أجملت بكلام يكون لهـا كالأصل والقاعدة . ثم يقع التفصيل لذلك الأجمال: يحصل به الايضاح والبيان التام الكامل . الذى لا يقع ما يقارب له لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم صـورة إجمالية لها . فان الصورة تشوق إلى التفصيل

وقد ورد هذا فى القرآن فى مواضع

فى قصة يوسف عليه الصلاة والسـلام فى قوله (نحن نقص عليك أحسن القصص) ثم أخذ فى تفصيلها (لقد كان فى يوسف و إخوته آيات للسائلين) ثم ساق القصة بتمامها

وكذلك قصة أهل الكهف ، قال فى تصويرها الجملى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً؟ إذ أوى الفتية إلى

الكهف فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة ،وهيء لنا من أمرنا رشداً . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً . ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً) فهذه الكلمات القليلة قد حوت مقصودها وزبدتها . ثم بسطها بقوله (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) ـ الآيات إلى آخر القصة

وكذلك قصة موسى قال (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق ـ إلى قوله ـ يحذرون) ثم أتى بعد ذلك بالتفصيل

وقال فى قصة آدم (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) ثم أتى بعد ذلك بالقصة

وأما التنقل فى تقرير الأشياء من أمر إلى ماهو أولى منه . فكثير

منه : قوله تعالى فى الإنكار على من جعل مع الله إلها آخر وإبطال زعمه الكاذب الذى هو أساس الوثنية : أن هؤلاء الأولياء والآلهة أبناء الله ،لأنهم النور الذى انبثق منه ثم تجسدوا بشرا ثم عادوا إلى النورانية ـ فيقول (مالهم به من علم ولا لآبائهم) فأبان أن قولهم هذا بلا علم ومن المعلوم : أنه كل قول بلا علم من الطرق الباطلة . ثم صرح بقبحه فى قوله (كبرت كلمة تخرج من أفواههم)

ثم ذكر له مرتبة من البطلان أسفل (إن يقولون إلا كذبا)

وقال فى حق المنكرين للبعث (بل ادّارك علمهم فى الآخرة) أى علمهم فيها علم ضعيف سافل إلى أحط الدركات. لا يعتمد عليه إلا سفيه. ثم انتقل إلى ماهو أبلغ منه فقال (بل هم منها عمون) والعمى آخر مراتب الحيرة والضلال

وقال عن نوح فى تقرير رسالته و إبطال قول من كذبه، وزعم أنه فى ضلال مبين (قال: ياقوم ليس بى ضلالة) ثم لما نفى الضلالة من كل وجه أثبت الهدى الكامل له، فقال (ولكنى رسول من رب العالمين) ثم انتقل إلى ماهو أعلى منه. وأن مادة هذا الهدى الذى جئت به من الوحى الذى هو أصل الهدى ومنبعه فقال (أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون) وكذلك هود عليه الصلاة والسلام

وقال فى تقرير رسالة أفضل الرسل وخاتمهم (والنجم إذا هوى. ماضل صاحبكم وماغوى) فنفى عنه ماينافى الهدى من كل وجه ثم قال (إن هو إلا وحى يوحى ـ الآيات)

وكانتقاله من ذكر هبة الولد لزكريا على كبره وعقم زوجته، إلى ذكر مريم وعيسى، وكذلك أمر بالتوجه إلى الكعبة بعد أن قرر فى الآيات السابقة حرمتها وعظمتها. وهذا فى القرآن كثير

القاعدة الحادية والستون

معرفة الأوقات وضبطها للاستفادة منها وحفظها من الضياع

حث الله عليه ، حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص ، وذلك أن الله رتب كثيراً من الأحكام العامة والخاصة على أزمنه تتوقف الأحكام عملا وتنفيذاً على ضبطها وإحصائها وتحديدها . قال تعالى (يسألونك عن الأهلة؟ قل : هى مواقيت للناس والحج) فقوله (مواقيت للناس)يدخل فيه مواقيت الصلوات والصيام والزكاة والعقود وغيرها . وخص بالذكر الحج لكثرة مايترتب عليه من الأوقات العامة والخاصة. وكذلك مواقيت العدد والديون ، والإجارات وغيرها . قال تعالى لما ذكر العدة (وأحصوا العدة) وقوله فى الصيام (فعدة من أيام أخر) وقال تعالى (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وقال تعالى (وكذلك بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) وذلك لمعرفة كمال قدرة الله فى إفاقتهم . فانهم لو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شىء من قصتهم . فمتى ترتب على

ضبط الحساب و إحصاء المدة ، مصلحة فى الدين أو الدنيا . كان مما حث وأرشد إليه القرآن .

و يقارب هذا المعنى: قوله تعالى (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ـ الآية) وقوله (لتعلموا عدد السنين والحساب) ونحوها من الآيات .

القاعدة الثانية والستون

الصبر أكبر عون على جميع الأمور . والذى يعين على الصبر : معرفة حقيقته ومعرفة سبله وعواقبه ومعرفة الجزع وسبله وعواقبه

وهذه القاعدة عظيمة النفع قد دل القرآن عليها فى مواضع قال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) أى استعينوا على جميع المطالب . وفى جميع شئونكم بالصبر ، فبالصبر: يسهل على العبد القيام بالطاعات، وأداء حقوق الله وحقوق عباده . و بالصبر يسهل عليه ترك ماتهواه نفسه من المحرمات فينهاها عن هواها حذر شقاها ، وطلبا لرضى مولاها . و بالصبر تخف عليه الكريهات . ولكن لهذا الصبر وسيلته وآلته التى ينبنى عليها. ولا يتم وجوده إلا بها ، وهى معرفة الشىء الذى يصبر عليه ، ومعرفة مافيه من الفضائل والثمرات المترتبة عليه . فمتى عرف العبد مافى الطاعات

من زيادة الإيمان ، وصلاح القلوب واستكمال الفضائل ، وما تثمره من الخيرات والكرامات ، ومافى المحرمات من الضرر والرذائل وما توجبه من العقوبات المتنوعة. وعلم مافى أقدار الله من البركة وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجور : إذا عرف ذلك هان عليه الصبر على جميع الشدائد . وبهذا يعلم فضل العلم ، وأنه أصل الفضائل كلها . ولهذا يذكر الله كثيراً فى كتابه أن المنحرفين فى الأبواب الثلاثة ما انحرفوا إلا لقصور علمهم ، وعدم احاطتهم التامة بها . وقال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقال (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) ليس معناه : أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء ، وإنما قصر علمهم وخبرتهم بما توجبه الذنوب من العقوبات وأنواع المضرات وزوال المنافع .

وقال تعالى عن الخضر لما قال له موسى (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ؟ قال : إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ؟) فعدم إحاطته به خبرا يمتنع معه الصبر . ولو تجلد ماتجلد عيل صبره .

وقال تعالى مبيناً عظمة القرآن وما هو عليه من الجلاء والصدق الكامل (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتيهم تأويله) فبين أن الأعداء المكذبين إنما كان تكذيبهم به لعدم

إحاطتهم بما هو عليه ، وأنهم لو أدركوه وأحاطوا به كما هو عليه ، لألجأهم واضطرهم إلى التصديق والاذعان . فهم و إن قامت عليهم الحجة ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذى يطابق معناه ، ولم يعرفوه حق معرفته .

وقال فى حق المعاندين الذين بان لهم علمه وخبروا صدقه . (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) وقال الله تعالى (فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

والمقصود : أن الله تعالى أرشد العباد إلى الاستعانة على كل أمورهم بملازمة الصبر ، وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور ، ومعرفة حقائقها ، وفضائلها ورذائلها .

القاعدة الثالثة والستون

يرشد القرآن الى أن العبرة بحسن حال الأنسان و إيمانه الصحيح وعمله الصالح ، وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوى المجردة أو بالرياسات والأمور الدنيوية والتقاليد الموروثة: من طرق المنحرفين ، والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلا لهذا الأصل وقد قال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً. فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا)

وقال تعالى (يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) وقد أكثر الله من هذا المعنى فى عدة مواضع .

وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين . فقال عن اليهود والنصارى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. تلك أمانيهم . قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) ثم ذكر البرهان الذى من أقامه وأتى به فهو المستحق للجنة . فقال (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به) وقال تعال (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا : أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) ؟ (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ونحوها من الآيات التى يستدل بها الكفار على حسن حالهم ، بتفوقهم فى الأمور الدنيوية ، والرياسات ، ويذمون المؤمنين مستدلين بنقصهم فى هذه الأمور الدنيوية الزائفة . وهذا من أكبر مواضع الفتن . فإن الرياسات والأمور الدنيوية مشتركة بين الخليقة : برها وفاجرها .

القاعدة الرابعة والستون

الأمور العارضة التى لاقرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد ترد على الحق وعلى الأمور اليقينية . ولكن سرعان ماتضمحل وتتلاشى

وهذه قاعدة شريفة جليلة قد وردت فى عدة مواضع من القرآن ، فمن لم يحكمها حصل له من الغلط فى فهم بعض الآيات مايوجب الخروج عن ظاهر النص ، ومن عرف حكمة الله فى ورودها على الحق الصريح : لأسباب مزعجة تدفعها أو لشبه قوية تحدثها ثم بعد هذا إذا رجع الى اليقين ، والحق الصريح ، وتقابل الحق والباطل ووقعت الخصومة بينهما، فغلب الحق الباطل ودمغه فزهق الباطل وثبت الحق ، حصلت العاقبة الحسنة ، وزيادة الايمان واليقين . فكان فى ذلك التقدير حكما بالغة ، وأيادى سابغة. ولنمثل لهذا بأمثلة

فمنها : أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الخلق إيمانا ويقينا ، وتصديقا بوعد الله ووعيده . وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوه فى الرسل . وأنهم قد بلغوا الذروة فيه . وأنهم معصومون من ضده . ولكن ذكر الله فى بعض الآيات أنه قد

يعرض لهم بعض الأمور المزعجة المنافية حسا لما علم يقينا. ما يوجب لهؤلاء الكمل أن يستبطئوا معه النصر، و يقولوا (متى نصر الله؟) وقد يخطر فى هذه الحالة للقلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات وتأثيرها فى القلوب . ثم فى أسرع وقت تنجلى هذه الحال و تنفرج الأزمة و يأتى النصر من قريب (ألا إن نصر الله قريب) فعندئذ يكون لنصر الله وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة أمر كبير ، لا يحصل بدون هذه الحالة . ولهذا قال (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا) فهذا الوارد الذى لا قرار له . وعند ماحقت الحقائق اضمحل وتلاشى ، لاينكر ولا يطلب للآيات الدالات عليه تأويلات تخالف ظاهرها

ومن هذا الباب : قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) أى يلقى من الشبه ما يعارض اليقين . ثم ذكر الحكم المترتبة على الإلقاء ولكن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يبطل مايلقى الشيطان ، ويحكم الله آياته . والله عليم حكيم . فقد أخبر الله بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء . لهذه الحكم التى ذكرناه . فمن أنكر ذلك بناء على أن الرسل لاريب ولا شك أنهم معصومون . وظن أن هذا

ينافى العصمة . فقد غلط أكبر الغلط . ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر فى الأمور الثابتة لم يقل إلا قولا يخالف فيه الواقع و يخالف بعض الآيات و يطلب التأويلات المستبعدات

ومن هذا — على أحد قولى المفسرين — قوله تعالى عن يونس (فظن أن لن نقدر عليه) وأنه ظن عرض فى الحال ثم زال . نظير الوساوس العارضة فى أصل الإيمان التى يكرهها العبد حين ترد على قلبه . ولكن إيمانه و يقينه يزيلها و يذهبها . ولهذا قال ﷺ عند ماشكى اليه أصحابه هذه الحال التى أقلقتهم ، مبشرا لهم « الحمد لله الذى رد كيده الى الوسوسة» وأخبرهم «أن هذا صريح الإيمان»

و يشبه هذا : العوارض التى تعرض فى إرادات الإيمان لقوة وارد من شهوة أو غضب ، وأن المؤمن الكامل الإيمان قد يقع فى قلبه همٌّ و إرادة، لفعل بعض المعاصى التى تنافى الإيمان الواجب ثم يأتي برهان الإيمان ، وقوة مامع العبد من من الإنابة التامة . فيدفع هذا العارض . ومن هذا قوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام (ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه) وهو ما معه من الإيمان والخوف والخشية ، والمعرفة التى دفعت عنه هذا الهم وموجبه ، وصارت إرادته التامة فيما يرضى ربه . ولهذا فاز بمرتبة الصديقية، لقوة إخلاصه و يقظة إيمانه بآيات

ربه ، وانتصر بعد المعالجة الشديدة من النسوة التى لا يصبر عليها إلا سادات الخلق حتى دعا ربه أن يبعده عن مواطن الفتن فقال (رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى اليه) وكان كل من يتشبه به ويقف موقفه أحد السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله « رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله » وقال تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) يشمل الطائف الذى يعرض فى أصل الإيمان أو الذى يعرض فى إرادته . فإذا مسهم تذكروا ما يدعو إلى الإيمان ، وواجباته . من آيات الله وسننه وحكمته وأحكامه فأبصروا ، فاندفعت الشبهات والشهوات . فرجع الشيطان خاسئا وهو حسير

ولعل من هذا قول لوط عليه الصلاة والسلام (أو آوى الى ركن شديد) وقول النبى ﷺ « لقد كان يأوى الى ركن شديد » يعنى : وهو الله القوى العزيز ، لكن غلب على لوط فى تلك الحالة الحرجة ملاحظة الأسباب العادية . فقال ما قال ، مع علمه بقوة ذى العظمة والجلال

القاعدة الخامسة والستون

قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح ، إذا كان يفضى إلى ترك واجب ، أو فعل محرم

وهذه القاعدة وردت فى القرآن فى مواضع متعددة ، وهى من قاعدة: الوسائل لها أحكام المقاصد فمنها قوله تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) وقوله (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن) وقوله (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) فالأمور المباحة هى بحسب مايتوسل بها اليه ، فإن توسل بها إلى فعل واجب أو مسنون . كانت مأموراً بها . وإن توسل بها إلى فعل محرم أو ترك واجب ، كانت محرمة منهيا عنها . وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية . والله أعلم

القاعدة السادسة والستون

أعظم الأصول التى يقررها القرآن و يبرهن عليها : توحيد الألوهية والعبادة

وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق ، وأكملها وأفضلها ، وأوجبها وألزمها لصلاح الإنسانية . وهو الذى خلق الله الجن والإنس لأجله وخلق المخلوقات . وشرع الشرائع لقيامه و بوجوده يكون الصلاح و بفقده يكون الشر والفساد

وجميع الآيات القرآنية إما أمر به أو بحق من حقوقه أو نهى عن ضده ، أو إقامة حجة عليه ، أو بيان جزاء أهله فى الدنيا والآخرة . أو بيان الفرق بينهم و بين المشركين ، و يقال له : توحيد الإلهية . فان الألهية وصفه تعالى الذى ينبغى أن يؤمن به كل بنى آدم : و يوقنوا أنه الوصف الملازم له سبحانه ، الدال عليها الإسم العظيم . وهو الله . وهو مستلزم جميع صفات الكمال . و يقال له : توحيد العبادة باعتبار وجوب ملازمة وصف العبودية بكل معانيها للعبد بصفته الملازمة له من مقتضيات العبودية للربوبية بإخلاص العبادة لله تعالى وتحقيقها فى العبد أن يكون عارفا بربه مخلصا له جميع عباداته محققا ذلك بترك الشرك صغيره وكبيره

وباتباع النبي ﷺ ظاهراً و باطناً ، والبراءة من كل بدعة وضلالة ،والحب فى الله والبغض فى الله

وهذا الأصل الذى هو أكبر الأصول وأعظمها قد قرره شيخ الاسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى رسائل لا تحصى وبالأخص فى كتاب التوحيد. وذكر من تقريره وتفاصيله وتحقيقه، ونفى كل مايضاده مالم يوجد فى كتاب غيره .

والقرآن يقرره بطرق متنوعة ،وقد تقدم فى أول القواعد شيء من ذلك . وقد ذكرنا فى التفسير ثمانية طرق كلية فى تقرير هذا الاصل . وصورة ماذكرناه على قوله تعالى(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ـ الآية) بعد ماذكرنا تفسيرها

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور .

أحدها ، بل أعظمها : التفكر فى سنن الله وآياته الكونية، ثم تدبر أسماء الرب ، وصفاته ، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته، وجلاله. فانها توجب بذل الجهد فى التأله له والتعبد للرب الكامل الذى له كل حمد ومجد وجلال وجمال

الثانى : العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير .فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية .

الثالث: العلم : بأنه المنفرد بهبة النعم الظاهرة والباطنة، الدينية

والدنيوية والأخروية . فإن ذلك يوجب تعلق القلب به خوفاً ورغبة ورهبة والتأله له وحده لاشريك له .

الرابع : ماتراه ونسمعه من الثواب لأوليائه ، القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة ، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به ، فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى المستحق للعبادة كلها وحده .

الخامس : معرفة الطواغيت التي فتنت الناس وصرفتهم عن كتبه ورسله . ومعرفة أوصاف الأوثان والأنداد ، التي عبدت مع الله ، وأنها ناقصة من جميع الوجوه ، فقيرة بالذات ، لاتملك لنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولاحياة ولا نشورا . ولا تنصر من عبدها ولا تنفعه بمثقال ذرة : من جلب خير ، أو دفع شر . فإن العلم بذلك يوجب العلم بأن لا إله إلا الله .

السادس : اتفاق كتب الله على ذلك ، وتواطؤها عليه . وهو أعظم مافيها .

السابع : أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقاً وعقولا ، وعلماً ورأياً وإصابة . وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون قد شهدوا لله بذلك .

الثامن : ما أقامه من الأدلة الآفاقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة ، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته ، وبديع حكمته ، وغرائب خلقه .

فهذه الطرق التى أكثر الله من دعوة الخلق بهـا إلى أنه لاإله إلا هو ، قد أبداها فى كتابه وأعادها بطرق وأساليب متنوعة إلى آخر ماذكرنا هناك . وكل رسول أول ما يدعو قومه إلى هذا التوحيد و يقرره لهم بأكثر وأقوى من هذه الأدلة .

القاعدة السابعة والستون

يرشد القرآن الى الرجوع الى الأمر المعلوم المحقق ،للخروج من الشبهات والتوهمات . وهذه القاعدة جليلة يعبر عنها : بأن الموهوم لايدفع المعلوم ، وأن المجهول لايعارض المحقق ونحوهامن العبارات وقد نبه الله عليها فى مواضع كثيرة .

منها : لما أخبر عن الراسخين فى العلم ، وأن طريقتهم فى المتشابهات : أنهم يقولون (آمنا به كل من عند ربنا) فالأمور المحكمة المعلومة : يتعين أن يرد إليها كل أمر مشتبه مظنون وقال فى زجر المؤمنين عن مجاراة الشائعات التى يقولها أهل السوء فى إخوانهم المؤمنين(ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين) فأمرهم بالرجوع إلى ماعلموا من إيمان المؤمنين الذى يدفع السيئات ، وأن يعتبروا هذا الأصل العظيم ، ولا يعتبروا كلام الخبيثين بما يناقضه ، و يقدح فيه

وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى . فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من كل عيب ونقص رماه به من آذاه . لأنه لايكون وجيها عند الله حتى يسلم من جميع النقائص التى لا تليق بالرسل ويتحلى بجميع الكمالات اللائقة بأمثاله من أولى العزم .فحذر الله هذه الأمة أن يسلكوا مسلك اليهود المغضوب عليهم القساة القلوب، الذين أعلنوا بمعاداة الأنبياء واحتقارهم ، مهما عادعليهم من الخير العظيم من تعظيم الأنبياء . حتى لم يسلم من أذاهم موسى الذى شرفهم بالانتساب اليه . وقد جعل الله نجاتهم من سوء العذاب والتقتيل على يده مع وجاهته عندربه .فالله يحذر المؤمنين ان يتشبهوا ببنى اسرائيل فيؤذوا أعظم الرسل جاها عند الله ، وأرفعهم مقاما ودرجة ، وأرأفهم بالمؤمنين وأكثرهم إحسانا الى الخلق

وقال تعالى (فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟) (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق)

القاعدة الثامنة والستون

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه

وهذه القاعدة وردت فى القرآن فى مواضع كثيرة

فمنها : ماذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله . فعوضهم الله الرزق الواسع فى الدنيا ، والعز والتمكين . وابراهيم ﷺ لما اعتزل قومه وأباه ، وما يدعون من دون الله : وهب له اسحق و يعقوب والذرية الصالحين. و يوسف عليه السلام لما ملك نفسه وعصمها من الوقوع مع امرأة العزيز ، مع ماكانت تمنيه به من الحظوة وقوة النفوذ فى قصر العزيز ورياسته ، وصبر على السجن وأحبه وطلبه ليبعد عن دائرة الفساد والفتنة : عوضه الله : أن مكن له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، و يستمتع بما يشاء مما أحل الله له من الأموال والنساء والسلطان . وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله . نشر لهم من رحمته وهيأ لهم أسباب المرافق والراحة وجعلهم سبباً لهداية الضالين . ومريم ابنة عمران لما أحصنت فرجها أكرمها الله ونفخ فيه من روحه وجعلها وابنها آية للعالمين.

ومن ترك ماتهواه نفسه من الشهوات لله تعالى عوضه الله من محبته وعبادته والإنابة اليه مايفوق لذات الدنيا كلها

القاعدة التاسعة والستون

القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين . ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسك بأصوله وفروعه وتنفيذ شرائعه وأحكامه

قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير فى دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح . وفى طريقته فى محاجة أهـل الباطل ، وفى سياسته الداخلية والخارجية مايدل على هذا الأصل . ويعرف الخلق أن العصمة من الشرور كلها لاطريق لهـا إلا التمسك بهذا القرآن وأصوله وعقائده ، وأخلاقه ، وآدابه ، وشرائعه

فأعظم أهل الشر : أهل التعطيل ، العمون عما سوى المحسوسات المنكرون للخالق وأديان الرسـل . وما أخبر الله به وأخبرت به رسله . وفى القرآن من البراهين والحجج المتنوعة مايبطل قولهم ويمحق مذهبهم . ويبين للعقلاء أنهم مكابرون فى إنكار أظهر الأشياء البديهية وأجلاها

ومنهم : أهـل الشرك بالمخلوقات وتسويتها بالرب فى شىء من الصفات والنعوت ، أو الحقوق الخـاصة لله . وفى القرآن من إبطال الشرك ، ووجوب التوحيـد ، وإقامة البراهين على تفرد الله تعالى بالوحدانية ، وصفات الكمال . وأنه لايستحق العبادة سواه ، وأن لا أحد يساويه فى وصف ، ولا فى حق من الحقوق : مايكفى بعضه لإزهاق قولهم

ومنهم المنكرون للأنبياء من الآدميين ، وفيه من الحجج والبراهين على إثبات رسالتهم ، واقامة الآيات والخوارق الدالة على صدقهم ، والأوصاف والنعوت التى اتصفوا بها : ما يدل أكبر دلالة على أنهم رسل الله حقاً . وأنهم أصدق الخلق ، وأكملهم فى كل صفة كمال . وأكملهم فى كل فضيلة

ومنهم المفرقون بين الأنبياء والكتب الذين يزعمون أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض . وفى القرآن حجج وبراهين كثيرة تدل على إبطال قولهم ، وأنهم متناقضون فى إثباتهم وفى نفيهم . وأن الإيمان الحق والحق الصريح : هو الإيمان بكل كتاب أنزله الله ، وبكل رسول أرسله ، وأن الحق والصدق والعلم واليقين يجب الإيمان به والاعتراف به حيثما كان ، ومع من كان . وليس ذلك بالدعاوى والأماني

ومنهم الإباحية والشيوعية الذين هم أخبث جرثومة لافساد الأديان والملك والدنيا والآخرة ، والقرآن كفيل بإبطال قولهم بما فيه من العقائد والبراهين . ووجوب التحلى بالأخلاق الجميلة والتخلى عن الأخلاق الرذيلة ، وأداء الحقوق المتنوعة بين طبقات الناس ، وايتاء الزكوات ، وإنقاذ المضطرين وغير ذلك من الأحكام والشرائع الحكيمة الرشيدة . فكل هذا سد محكم

يمنع نفوذ هؤلاء المفسدين . ويقى شرهم ويزهق حجتهم

ومنهم أهل البدع على اختلاف مذاهبهم وتنوع نحلهم . وفى القرآن من البراهين ، ووجوب التمسك بما عليه النبي ﷺ من أصول الدين ، وفروعه ، ووجوب رد المتشابه إلى المحكم والاعتصام بحبل الله ودينه ما يبطل قولهم جميعا ويكسر شوكتهم

ومنهم : أهل التحزب والتشيع ، وتفريق المسلمين، وتمزيق وحدتهم ، وفى القرآن من الحث على الاعتصام بحبل الله . والحث على الألفة ، والنهى عن التفرق ، والاخبار بأن التفريق فى الدين طريق أهل الضلال والغضب،والتحذير من أحوال هؤلاء وهؤلاء ووجوب الاتفاق على الأصول العامة الكلية ، مما يقمع شرهم ، ويبين شناعة طريقتهم

ومنهم : أهل الفساد المنتهكون للدماء والأموال والأعراض وفى الآيات القرآنية من قمعهم وإقامة الحدود عليهم ، والزجر عن طريقتهم ، والمواعظ والزجر مايقمعهم ويردعهم ، ويخفف شرهم . فكل صاحب شر وفساد إنما سلطته ووصول شره على من لم يعتصم بالقرآن، وكل من خرج من هذا الحصن الحصين الذى من دخله كان من الآمنين من كل شر وضرر . وهو القاهر لكل باطل والمطهر للقلوب والمجتمع من كل فساد

القاعدة السبعون

فى اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني

اعلم أن مامضى من القواعد السابقة هى المقصود بوضع هذا الكتاب . وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التى يرجع اليها كثير من الآيات ، وأنها و إن تنوعت ألفاظها ، واختلفت أساليبها وتفاصيلها . فإنها ترجع إلى أصل واحد ، وقاعدة كلية

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم . فان كثيراً منها من القواعد الجوامع ، وهى من أعظم الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد . وعلى صدق من أوحى إليه به وأعطى جوامع الكلم ، واختُصر له الكلام اختصاراً . ولنضرب لهذا أمثلة ونماذج

فمنها : قوله تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) (والسابقون السابقون) (إن الله يأمر بالعدل والإحسان ـ الآية) (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً) (وما تفعلوا من خير يعلمه الله)(من يعمل سوءا يجز به)

(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا) (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) (وأمرهم شورى بينهم) (وشاورهم فى الامر) (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) (والصلح خير) (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) (والله لا يحب الفساد) (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) (فلا تدع مع الله أحدا) (فلا تجعلوا لله أندادا) (ألا لله الدين الخالص) (فادعوا الله مخلصين له الدين) (فاتقوا الله ما استطعتم) (ويؤت كل ذى فضل فضله) (ولا تنسوا الفضل بينكم) (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) (فاستقم كما أمرت) (فاستقيموا اليه) (واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) (إن الحسنات يذهبن السيئات) (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) (إنا كذلك نجزى المحسنين) (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ـ الآيات) (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) (يهدى إلى الرشد) (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (ما على المحسنين من سبيل) (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث

و يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ـ الآية) (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أمــلا) (وخير مردا) (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (ماجعل عليكم فى الدين من حرج) (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) (لايكلف الله نفساً إلا ماآتاها) (لينفق ذو سعة من سعته ومن قُدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) (لقد كان لكم فى رســول الله أسوة حسنة) (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ـ الآية)(وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ماا كتسبوا ـ الآية) (وأعــدوا لهم مااســتطعتم من قوة) (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)

فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها كل منها قاعدة ، وأصل كلى ، يحتوى على معان كثيرة

وقد تقدم فى أثناء القواعد منها شىء كثير . وهى متيسرة على حافظ القرآن ، المعتنى بمعرفة معانيه ولله الحمد

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وقد يسر الله مامن بجمعه . فجاء ولله الحمد على اختصاره ووجازته ووضوحه كتابا يسر الناظرين .

ويعين على فهم كلام رب العالمين . وقد حوى من الأصول الكلية والقواعد العامة التى هى أجل القواعد وأنفعها وأصحها وأقواها شيئاً كثيرا ، وعلما واسعا غزيراً . ومخبر الكتاب يغنى عن وصفه

وأسأل الله الرحمن الرحيم أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، مقربا إلى جنات النعيم . وأن ينفع به مؤلفه وقارئه ، بمنه وكرمه وجوده وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، وعلى لهم بإحسان إلى يوم الدين آمين

وقد تم ذلك فى ٦ شوال سنة ١٣٦٥ هـ .

والحمد لله رب العالمين

* * *

وبعد فهذه القواعد : جمعت من أنواع الحسن ما يجعلها أحسن نموذج لاجتناء ثمرات القرآن الطيبة الدانية . وهى تنادى : أن الشيخ عبدالرحمن ـ زاده الله هدى ـ قد نشط : محرراً من قيود التقليد يتنقل فى رياض التحقيق النضرة ليجنى قطوف الشكر ، ويقدمها لإخوانه المؤمنين . وهذه القواعد أول فاكهة سيتلوها غيرها أنضج منها وأبرك إن شاء الله . فشمر أيها المقتطف ، وسر قدماً إلى أهدافك . ولا تنظر خلفك . ولا ترج إلا مثوبة ربك . والله يؤيدنا ويؤيدك . ويثبتنا ويثبتك وثق أن الطريق ممهد والغاية قريبة . والنجح مكفول لكل صبار شكور .

أخوك : محمد حامد الفقى

فهرست

٣	الخطبة	
٥	القاعدة الأولى	: فى كيفة تلقى التفسير
٧	« الثانية	: العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب
٩	« الثالثة	: دخول ال لعموم الاستغراق بحسبه
١٣	« الرابعة	: النكرة فى سياق النفى أو النهى
١٤	« الخامسة	: المضاف يفيد العموم كاسم الجمع
١٧	« السادسة	: طريقة القرآن فى تقرير التوحيد
١٩	« السابعة	: طريقة القرآن فى تقرير النبوة
٢٤	« الثامنة	: طريقة القرآن فى تقرير المعاد
٢٦	« التاسعة	: طريقة القرآن فى الخطاب بالأحكام
٢٩	« العاشرة	: طريقة القرآن فى دعوة الكفار
٣١	« الحادية عشرة	: مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام
٣٧	« الثانية «	: الآيات التى يظن فيها التعارض
٤٣	« الثالثة «	: طريقة القرآن فى المجادلة والحجاج
٤٦	« الرابعة «	: حذف المعمول يفيد العموم النسبى
٥١	« الخامسة «	: جعل الأسباب للمطالب العالية مبشرات
٥٢	« السادسة «	: حذف جواب الشرط لتعظيم الأمر
٥٣	« السابعة «	: إفراد الاسم يدل على العموم المناسب
٥٦	« الثامنة «	: إطلاق الهداية والاضلال وتقييدها
٥٩	« التاسعة «	: الأسماء الحسنى فى ختم الآيات

٦٩	القاعدة العشرون	:	القرآن : محكم ومتشابه (ووضع برقم ١٦٩ خطأ)
٧٣	« الحادية والعشرون	:	إرشادات القرآن تجرى مع الزمان والمكان
٧٦	« الثانية «	:	مقاصد الأمثال فى القرآن
٨٤	« الثالثة «	:	إرشادات القرآن على نوعين
٨٧	« الرابعة «	:	التوسط والاعتدال وذم الغلو
٩٠	« الخامسة «	:	حدود الله : تعديها وقربانها
٩٢	« السادسة «	:	الأحكام فى الآيات المقيدة
٩٩	« السابعة «	:	المحذورات تقع عند الحاجة
١٠٢	« الثامنة «	:	الأوصاف الجامعة فى المؤمن
١٠٦	« التاسعة «	:	ما يجنى العبد من فهمه لعلوم القرآن
١١٠	« الثلاثون	:	أركان الايمان بالاسماء الحسنى
١١١	« الحادية والثلاثون	:	عموم وخصوص ربوبية الله
١١٣	« الثانيـة «	:	الأمر بالشىء نهى عن ضده
١١٥	« الثالثـة «	:	مرض الشهوات ومرض الشبهات
١١٧	« الرابعة «	:	من ترك ما ينفعه ابتلى بما يضره
١١٩	« الخامسة «	:	تقديم أعلى المصلحتين وأهون المفسدتين
١٢٢	« السادسة «	:	مقابلة المعتدى بمثل عدوانه
١٢٣	« السابعة «	:	اعتبار المقاصد فى ترتب الأحكام
١٢٥	« الثامنة «	:	جبر المنكسر قلبـه والمتشوق لأمر

١٢٦ القاعدة التاسعة الثلاثون : السياسة الداخلية والخارجية
١٣٤ « الأربعون : أصول الطب
١٣٦ « الحادية والأربعون : قصر النظر على الحالة الحاضرة
١٤٠ « الثانيـة « : الحقوق لله ولرسوله
١٤٢ « الثالثـة « : الأمر بالتثبت
١٤٣ « الرابعة « : علاج ميل النفوس إلى مالا ينبغى
١٤٤ « الخامسة « : الحث على الصلاح والاصلاح
١٤٦ « السادسة « : توجه الأمر إلى الداخل فيه فيصححه ويكمله الخ .
١٤٧ « السابعة « : السياق الخاص يراد به العام
١٤٨ « الثامنة « : تعليق علم الله بالأمر بعد وجوده .
١٥٠ « التاسعة « : فتح الله أبوابا أنفع وأسهل مما أغلقها
١٥١ « الخمسون : آيات الرسول من الله وحده .
١٥٤ « الحادية والخمسون : دعاء العبادة والمسألة .
١٥٨ « الثانية « : وضوح الحق يبطل المعارضة .
١٦٠ « الثالثة « : الأجر على قدر المشقة .
١٦٣ « الرابعة « : نفى الشيء لعدم وجود فائدته .
١٦٧ « الخامسة « : ثواب من أحصر عن العمل .
١٦٩ « السادسة « : تحصيل المصالح على قدر الوسع والطاقة
١٧١ « السابعة « : الاستدلال بالسنن الكونية على التوبة
١٧٣ « الثامنه « : الكمال إنما يظهر إذا قرن بضده .

١٧٧ القاعدة التاسعة والخمسون: هداية القرآن للتى هى أقوم
١٧٩ « الستون : أنواع التعليم القصصى فى القرآن
١٨٢ « الحادية والستون : الانتفاح بالأوقات بحفظها وضبطها .
١٨٣ « الثانية « : الصبر أكبر عون على النجاح .
١٨٥ « الثالثة « : العبرة بصدق الايمان وصلاح الأعمال .
١٨٧ « الرابعة « : لاقرار للشبهات التى تعرض للحق المتيقين .
١٩١ « الخامسة « : المنع من المباح المفضي إلى ترك واجب .
١٩٢ « السادسة « : أعظم الأصول توحيد العبادة والالهية .
١٩٥ « السابعة « : الرجوع إلى الأمر المحقق للخروج من المشتبه فيه
١٩٧ « الثامنة « : من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه .
١٩٨ « التاسعة « : مقاومة القرآن جميع المفسدين .
٢٠١ « السبعون : جوامع المعانى فى القرآن .
٤٠٤ خاتمة للمصحح